المحبة موضوعها وغاياتها عند الغزالي

لقد وصلت المحبة [1] إلي درجة من الذيوع والانتشار في نفوس الصوفية ومؤلفاتهم فأفردت لها الكتب والمقالات والفصول الخاصة . فعدها البعض من المقامات[2] والبعض الآخر من الأحوال[3] ولم تكن هذه المنزلة عند المتصوفة فقط بل إنها شغلت جميع الأوساط الإسلامية من فقهاء ومتكلمين وفلاسفة وصوفية وذلك لأنه بات واضحاً أن المحبة هي " نقطة البداية التي يقترن فيها النظر بالعمل " [4]

---

[1] المحبة : مقام ــ أم حال .

(تعددت أسماء الحب الإلهي ولذا فقد اختلف القوم في المحبة من حيث هل هي من المقامات أم من مجموع الأحوال ، وذلك لاختلافهم في تعريفها . فقال الخراز (ت ٢٧٧هـ) والمكي (ت٣٨٦ هـ) والقشيري (ت ٤٦٥هـ) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وابن عربي (ت ٦٣٦هـ) بأن المحبة مقام وقال الهجويري (ت ٤٦٥هـ) والطوسي (ت٧٧٨هـ) والكاشاني (ت ٧٣٠ هـ) بأن المحبة حال ، ويري السهروردي (ت ٦٣٢هـ) بأنها حال ومقام في آن واحد (انظر د/ أبو الوفا التفتازاني) المعرفة الصوفية آداتها ومنهجها وموضوعها وغاياتها عند الصوفية ، مقال منشور بمجلة الرسالة العدد (٩٣٢ ، مايو ١٩٥١م ، صـ ٥٠٠- ٥٠٥)

الحال ــ عند القوم ــ معني يرد علي القلب من غير تعمد ، وذلك لأن (الأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود) (القشيري ــ الرسالة ــ صـ ٣)

[2] المقام : سمي مقاماً لإقامة السالك فيه.والمقام استيفاء حقوق المراسم ، فإنه من لم يستوف حقوق ما فيه من المنازل لم يصح له الترقي إلي ما فوقه . صـ ١٠٧ .

(عبد الرزاق الكاشاني ــ اصطلاحات الصوفية ــ تحقيق وتقديم وتعليق د/ عبد العال شاهين) دار المنار ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م . ط١ .

[3] الحال : تحول من حال إلي حال ، والحال ما حل فيه الإنسان أو ما كان هو محلاً له من أحوال ، فالتعريف ذو علاقة بأطوار وجدانية داخلية إشراقية ذات صلة بعلم التصوف بالذات ، والحال تقلب ، لذا كانت الأحوال درجات سلم ، عليها يرتقي السالك صعودا إلي مرحلة المقامات صـ ٨٧ .

(محمد غازي عرابي ــ النصوص في مصطلحات التصوف ــ دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ــ دمشق ــ ١٩٨٥م .

[4] د/ مصطفي حلمي (أعمال القلوب) صـ ١٢٦ ــ ط١ سنة ١٩٩٣م ، دار الدعوة ــ الإسكندرية

ولقد اهتم بها الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) والذي يعتبر بحق " أكبر مدافع في الإسلام عن التصوف السني ، وهو التصوف القائم علي عقيدة أهل السنة والجماعة " [١] وأصبحت المحبة عنده كما هي عند السلف تماماً الدائرة التي تدور حولها كافة المقامات والأحوال، ولقد تابع فيها الغزالي من سبقوه من الصوفية أمثال أبي طالب المكي [٢] (ت ٣٨٦ هـ) في كتابه (قوت القلوب) وأيضاً السراج الطوسي[٣] (ت ٣٧٨هـ) ، والحارث المحاسبي [٤](ت ٢٤٣هـ) ، والكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) وغيرهم من المشايخ الذين ذكروا في كتبهم وعلي الأخص الجنيد[٥] (ت ٢٩٧هـ) شيخ الطريقة ـ ومع اختلاف الأقوال حول كونها من المقامات أو من الأحوال نجد الغزالي ت ٥٠٥ هـ) يحسم تلك القضية بأنها من المقامات العالية في طريق السالك نحو الله حيث يقول (المحبة لله هي الغاية القصوي من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها

---

[١] د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني (المدخل إلي التصوف) صـ ١٥٢ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ط٣ ١٩٨٩م .

[٢] أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ) صاحب قوت القلوب : هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ـ تميز بغزارة علمه وكثرته ـ كان عابداً مجتهداً في العبادة مبالغاً فيها سالكاً طريق الرياضة ـ نزل بمكة وجاور بها زمناً فنسب إليها ـ أقام ببغداد حتي توفي بها رحمه الله وقد ترجم له كثير من أهل العلم من المتصوفة والمستشرقين وعني الكثير منهم بكتابة قوت القلوب .

[٣] السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي ـ الملقب بطاووس الفقراء كان علي طريقة أهل السنة ـ صاحب كتاب اللمع في التصوف ـ وهو بحق أكبر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم جميعاً بلا استثناء (انظر ترجمته في شذرات الذهب ، ج٣) وانظر مقدمة كتاب اللمع تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور وأيضاً (الذهبي : تاريخ الإسلام ٣٧٨هـ

[٤] الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) صاحب كتاب الرعاية لحقوق الله ـ والتوهم ـ وغيرها وهو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ـ عديم النظير في زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالاً ـ بصري الأصل ـ يقول القشيري ـ سمعت ـ الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالي يقول ـ كان للحارث المحاسبي إذا مد يده إلي طعام فيه شبهة تحرك علي إصبعه عرق فكان يمتنع عنه .. انظر الرسالة، صـ ٧٨ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

[٥] الجنيد (ت ٢٩٧هـ) هو أبو القاسم بن محمد الخراز ـ البغدادي ـ أصله من نهاوند ومولده ونشأته بالعراق ـ شيخ الطريقة ـ كان فقيهاً علي مذهب أبي ثور ، وصوفياً من المتمسكين بالكتاب والسنة ، صحب السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهما ، توفي يوم نيروز الخليفة ٢٩٧هـ ـ انظر طبقات الشعراني ، ج١ ، صـ ٩٣ .

وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها) [1] وإذا حاولنا فهم قول الغزالي وبيان مقاصده نكتشف أن موضوع المحبة عند الغزالي هو (الله تعالي) فالمحبة كالسراج الذي يحمله المحب لكي يعيش مع الحبيب . وأيضاً فإن غاية المحبة عند الغزالي :- هي معرفة الحبيب علي أتم وجه وهو الله تعالي ولا يستطيع المحب أن يعرف حبيبه علي أتم وجه إلا بتطهير النفس من العلائق والكدورات الحاجبة والمانعة من ذلك ويكون هذا بتطهير النفس ومجاهدتها وإلزامها كل درجات الترقي حتي تصل إلي محبة المحبوب ولذا فإننا نري الغزالي يسير مع الشرع في بيان شواهد المحبة مؤكداً أن " مفتاح السعادة اتباع السنة والاقتداء برسول الله ﷺ في جميع مصادره وموارده ، وحركاته وسكناته حتي في هيئة أكله وقيامه ونومه وكلامه " [2] وبهذا يؤكد الغزالي أن سلوكه لطريق الله أصله تقديم الفقه والعمل بالشريعة وأساسه قوله تعالي " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " [3]

شواهد الشرع في المحبة

والغزالي يوافق إجماع علماء الأمة في مسألة المحبة لا سيما وقد اجتمعت الأدلة الشرعية علي وجوبها يقول " اعلم أن الأمة مجمعةٌ علي أن

---

[1] الإحياء ــ الغزالي ، ج٤ ، صـــ ٢٩٤ .

[2] الأربعين في أصول الدين ــ الغزالي صـــ ١٠٢ (طبعة الجندي) تحقيق الشيخ / محمد مصطفي أبو العلا، مكتبة الجندي ، ١٣٩٠هـــ / ١٩٧٠م .

[3] آل عمران : آية ٣١

قال الحافظ بن كثير في تفسيره هذه الآية حاكمة علي كل من ادعي محبة الله وليس هو علي الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه حتي يتبع الشرع المحمدي وجاء في تفسير الإمامين الجليلين (السيوطي والمحلي) (يحببكم . بمعني يثيبكم)

الحب لله تعالي ولرسوله ﷺ فرض " [1] وقد رأي بعض الناس أن الحب هو الطاعة وفي هذا يظهر الغزالي خطأهم أنه لا توجد طاعة إلا بعد وجود المحبة فلا طاعة إلا لمحبوب وبذلك فإن الطاعة ثمرة من ثمار المحبة " وكيف يفسر الحب بالطاعـــة ، والطاعة نبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب " .[2]

ودليل إثبات الحب في الله ولله في آن واحد قوله تعالي " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ "[3] وقوله تعالي " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ "[4] وظاهر اللفظ القرآني يؤكد أن المحبة متبادلة بين العبد والرب تعالي ولكن كثيراً من الناس ضلوا في هذا حيث أرادوا تنزيه الله عن المحبة للعبد حتي " أنكر بعض العلماء إمكانها : وقال لا معني لها إلا المواظبة علي طاعة الله تعالي ، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا من الجنس والمثال " [5] وقد ترتب علي هذا الخطأ أنهم أنكروا معها ثمرات المحبة المترتبة عليها مثل الشوق والأنس واللذة وغيرها ، وكما أنه وجد ضالته في القرآن الكريم فإنه أيضاً وجدها في السنة المطهرة مما جعله وهو العالم البصير يحكم بأن رسول الله ﷺ " قد جعل الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة " [6] قال عليه الصلاة والسلام " لا يؤمن أحدكم حتي يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " [7] ويؤكد الغزالي في موضع آخر أن من " أحب معرفة أسرار الربوبية ، فليلازم باب الله عز

---

[1] الإحياء ، ج ٤ صـــ ٢٩٤ ،

[2] الإحياء ، ج٤ صـــ ٢٩٤ ،

[3] سورة المائدة : ٥٤.

[4] سورة البقرة : ١٦٥.

[5] المرجع السابق، ج٤ ، صـــ ٢٩٤ ، .

[6] المرجع السابق صـــ ٢٩٤

[7] متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه .

وجل بالمحبة والإخلاص والصدق والتعظيم والحياء ، والامتثال بالأوامر والانتهاء عن المعاصي ، والمجاهدة والإقبال بكنه الهمة ، والتعرض لنفحاته لقوله عليه الصلاة والسلام: (إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها) [١] والسعي فيما يرضي [٢] ومن هنا يتضح لنا أيضاً كيف استطاع الغزالي أن يكمل طريق [٣] من سبقوه في المحبة ويتابعهم في ذلك لأن المحبة عندهم كانت السبيل لبلوغ أعلي درجات السعادة قال أبو عبد الله النباجي : المحبة : لذة في المخلوق ، واستهلاك في الخالق [٤] والمحبة بهذه الصورة أن لا يكون الحب لغاية دون المحبوب وأن يصبح المحب مع الخالق كورقة شجر تطيرها الريح . والمحبة أيضاً تدفع المحب إلي تحمل الصعاب وتجاوز الطريق للوصول إلي الشعور الدائم بالسعادة والفرح ــ يقول الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) " أشد الأشياء إزالة للمكابدات في علم الدرجات في منازل العبادات ــ لزوم القلب محبة الله عز وجل ، وهي أنعم

---

[١] رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة رضي الله عنه .

[٢] الأربعين في أصول الدين ــ الغزالي صـ ١٩ ــ (طبعة الجندي) .

[٣] الطريق ــ عبارة عن مراسم الحق تعالي المشروعة التى لا رخصة فيها ــ (ابن عربي ــ الفتوحات المكية) والطريقة : هي السيرة المختصة بالسالكين إلي الله من قطع المنازل والترقي في المقامات (الكاشاني ــ اصطلاحات الصوفية ، صـ ٨٥) تحقيق د/ عبد العال شاهين ، دار المنار ، ط١ ، ووردت كلمة طريق وطريقة في القرآن الكريم في مواضع ــ قال تعالي (إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً) (طه : ١٠٤) وقال تعالي (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقه) (النساء : ١٦٢) ومراتب الطريق أربعة (وهي مرتبة التوبة ــ مرتبة الاستقامة ــ مرتبة التهذيب ــ مرتبة التقريب) انظر ــ جامع الأصول للكشمخوي ــ السيد ضياء الدين الكشمخوي النقشبندي ، ط١ ، مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٨هـ ــ وانظر للاستفادة (د/ عامر النجار) الطرق الصوفية في مصر / دار المعارف ، ط٥ ، ١٩٩٢م .

[٤] التعرف لمذهب أهل التصوف ــ للكلاباذي صـ ١٢٨ ، قدم له وحققه وراجع أصوله وعلق عليه ــ محمود أمين النواوي ، ط٣ ، ١٩٩٢م ــ المكتبة الأزهرية للتراث ــ القاهرة .

الأشياء لقلوب العابدين وأدومها لها سروراً " [1] وقال الجنيد (ت ٢٩٧هـ) رحمه الله تعالي عن أستاذه السري السقطي (ت٢٥١هـ) ـ رحمة الله ـ أنه كثيراً ما كان ينشد هذه الأبيات [2] :

ولمـا ادعيت الحب قالت : كذبتني فمـا لي أري الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتي يلصقَ الجلدُ بالحشا وتنبـلَ حتـي لا تجيـب المـناديا

وتـنحلَ حتـي لا يبقي لك الهوى سـوي مقلـةٍ تبكـي بها أو تناجيا

طرق تحقق المحبة لله تعالي عند الغزالي :-

في هذا الأمر يبني الغزالي المحبة علي أساس من الإدراك فإنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه .

ويقسم الإدراك بهذا إلي ثلاثة أقسام [3]:

الأول : ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك .

الثاني : ما ينافيه ويؤلمه وينافره ، وهذا مبغوض عند المدرك .

الثالث : ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ ، وهذا لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً . فإذا تحقق الإدراك إلي ما يلائمه ويلذ صار بذلك محبوباً . وهذا التقسيم للمدركات قد لا يفهمه بعض الناس فيظنون أن المدركات هي ما

---

(١) حلية الأولياء ـ للأصفهاني، ج١ ، صـ ٨٧، أبو نعيم ط١ السعادة ١٩٣٢م .

(٢) اللمع ـ للسراج الطوسي ، صـ ٣٢٢ ، أبو نصر السراج الطوسي (اللمع) ، تحقيق وتقديم ـ وخرج أحاديثه د/ عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر، ومكتبة المثني ببغداد ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

(٣) الإحياء للغزالي ، صـ ٢٩٦

يقع تحت الحواس الخمس وأن كل ما يحب يجب أن يكون مقصوراً تحت إدراك هذه الحواس حتي يقال " إن الله تعالي لا يدرك[1] بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب " [2] وهذا خطأ جسيم لأن المعقولات التي لا تدرك إلا بالعقل لا تقع تحت الحواس فلا تنكر الشمس وضوءها عندما يأتي الليل ــ وأيضاً فإن الألم والحب والبغض وكل الأشياء المعنوية كالوفاء والصدق والإخلاص لا تدرك بالحواس ولكنها تقع تحت البصيرة[3] أو النور أو العقل ولهذا فإن الغزالي يري أن (البصيرة الباطنة أقوي من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ .... فلا ينكر إذن حب الله تعالي إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً) [4] .

ويمكننا من خلال كلام الغزالي السابق أن نتبين شيئاً مهماً وهو أن هناك من المعارف معارف عالية لأن مقصودها الذات الإلهية وهذه المعارف

---

(1) وأدرك الشيء : لحقه وبلغه وناله وأدرك الشيء ببصره : رآه وأدرك المعني بعقله : فهم ، انظر ــ المعجم الوجيز ــ لمجمع اللغة العربية ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

(2) الإحياء ، ج٤ ، الغزالي ، صـ ٢٩٧

(3) البصيرة ــ قوة الإدراك والفطنة . والعلم والخبرة والحجة والجمع بصائر (مجمع اللغة العربية) ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م (المعجم الوجيز) ، صـ ٥٣ ــ طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم . وعند (الكاشاني) في معجم اصطلاحات الصوفية صـ ٦٤ ، ط١ ، ١٩٩٢م ن دار المنار ــ القاهرة ــ البصيرة ــ قوة القلب المنورة بنور القدس يري بها حقائق الأشياء . وبواطنها بمثابة البصر للنفس التي ترى به صور الأشياء وظواهرها وهي القوة التي يسميها الحكماء (القوة العاقلة النظرية) ، أما إذا تنورت بنور القدس وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم : القوة القدسية . (تحقيق / عبد العال شاهين)

(4) الإحياء ، ج٤ ، الغزالي ، صـ ٢٩٧

هي التي تولد الحب وبالتالي تتولد عنه أعظم اللذات والسعادات وهي معرفة الباري سبحانه وتعالي .

وقد تكون هذه المعرفة بالاكتساب وقد تكون بالوهب الإلهي وتسمي حينئذ علماً لدنيا كما قال تعالي " وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً " [1] فإن العلم[2] الذي يحصل (عن الإلهام[3] يسمي علماً لدنياً ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع علي قلب صاف فارغ لطيف) [4] .

---

[1] سورة الكهف :آية ٦٥.

[2] (الكاشاني ــ معجم الاصطلاحات) العلم لغة : نقيض الجهل : ففي اللسان (علم) ، والعلم نقيض الجهل ــ علم علماً ، لا علم هو نفسه ، ورجل عالم وعليم من قوم علما فيهما جميعاً .

قال ابن جني : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كأنه غريزة ولم يكن علي أول دخوله فيه ، ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً فلما خرج بالغريزة إلي باب فعُل صار عالم في المعني كعليم فَكُسِرَ تكسره ، ثم حملوا عليه ضده فقالوا جهلاء كعلماء .

وفي اصطلاحات الصوفية صـ ٢٩٦ لابن عربي (العالم والعلم) بقوله (من أشهده الله ألوهية ذاته ، ولم يظهر علي حال والعلم حاله) .. انتهي صـ ٢٨٨ ودرجة العلم في الأحوال : علم لدني وهبي ، يبصر بدقائق الأحوال وذنوبها مفاسدها ، وتصحيحها بتعريفه أحكامها وخواصها صـ ٢٨٩ .

[3] الإلهام : هو الاطلاع علي الأسرار الغيبية بعين البصيرة في عالم المثال بلا شك وشبهة اطلاعاً غيبياً ودرجة في الأحوال : تتقي خصائص المحبة وأحكامها ، وقبول الجذبات الإلهية بلا تعمل وكسب بمحض الموهبة والافتتان .

[4] الرسالة اللدنية ، صـ ١١٦ ــ الغزالي ــ تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ــ مكتبة الجندي ، ضمن القصور العوالي ، ج١ .

والغزالي يقسم الحب إلي أقسام تطلعنا علي مدي تضلعه في فهم النفس ومدي ما حصله من علوم في شتي مناحي الفكر الإنساني جعلت منه الطبيب الحاذق الذي يصور العلل ويبين سبل علاجها .

ويقسم أسباب تحقيق المحبة إلي خمسة أقسام رئيسية :-

الأول منها :- حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه . [1] فإن العبد إذا أدرك أنه لا بقاء ولا كمال إلا بالتخلي عن الدنيا والتقرب من الآخرة وذلك لأن العز الأكبر في الطاعة والكمال الأعظم في أن ينال المرء رضا الله ــ كما جاء في قوله تعالي " رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ "[2] .

وجاء في الرسالة عن ابن عطاء[3] يقول وقد سئل عن المحبة فقال (أغصان تغرس في القلب فتثمر علي قدر العقول) [4] .

الثاني :- حب من أحسن إليه فيما يرجع إلي دوام وجوده ويعين علي بقائه ودفــع المهلكات عنه : وقد جبلت القلوب علي حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . [5] قال رسول الله ﷺ " اللهم لا تجعل لفاجر علي يدا

---

[1] الإحياء (للغزالي ج٤ صـــ ٣٠٠) (من القصور العوالي الطبعة السابعة ، دار الصابوني

[2] سورة المائدة : آية ١١٩.

[3] ابن عطاء (أورده الشعراني في الطبقات بعنوان أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء البغدادي ، وقال إنه كان من ظروف المشايخ الصوفية وعلمائهم ، صحب الجنيد وغيره ، وكان أبو سعيد الخراز يقول في شأنه : التصوف خلق وما رأيت من أهله إلا الجنيد وابن عطاء : مات سنة ٣٠٩هـــ) ومن كلامه : أدن قلبك من مجالسة الذاكرين لعله ينتبه من غفلته وإياك وأن تكون حاضراً عند الذاكرين ولا تذكر معهم فتمقت .

[4] الرسالة القشيري ، صـــ ١٥٩ ، أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن ــ مكتبة محمد علي صبيح ــ القاهرة ، بدون تاريخ .

[5] الإحياء ، ج٤ ، للغزالي ، صـــ ٢٩٨ ،

فيحبه قلبي " [1] ولهذا نجد المشايخ من قبل الغزالي يقرون بهذا قال الكتاني[2] " المحبـــة الإيثار للمحبوب " ولم يكن هذا الإيثار إلا لسابقه الإحسان .

الثالث :- حب من كان محسناً في نفسه ولم يكن محسناً إليه . وذلك لأن المحسن تغلب صفاته علي سائر الأعمال فيصبح مثالاً بين الناس والنفوس جبلت علي حب الإحسان فأحبت المحسنين بعامة وكيف لا والله تعالي يقر بذلك مع أنه سبحانه وتعالي لا يصله إحسان العباد إليه فهو الغني قال تعالي " إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " [3] فمنحهم الرحمة التي من أجلها خلقت الجنة وذلك لأنهم تحققوا بوجوبها ، (ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله) [4] .

الرابع :- حبه لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان في الصور الظاهرة أو الباطنة وذلك لأن كل جمال وحسن فهو محبوب [5] وصدق رسول الله حيث يقول (إن الله جميل يحب الجمال) [6] .

---

[1] رواه الديلمي بسند ضعيف في مسند الفردوس .

[2] الكتاني (أبو عبد الله بن علي الكتاني ــ أورده السلمي بكنية أبي بكر ثم قال : ويقال أبو عبد الله وأبو بكر أصح وهو من بغداد ، صحب الجنيد والخراز وغيرهما وجاور بمكة حتي مات سنة ٣٢٢ هـ) ومن كلامه الشكر في موضع الاستغفار ذنب والاستغفار في موضع الشكر ذنب ، صـ ٤٢ (التعرف لمذهب أهل التصوف ــ للكلاباذي ــ تحقيق / محمود أمين النواوي ــ المكتبة الأزهرية ١٩٩٢م .

[3] سورة الأعراف : آية ٥٦ .

[4] الإحياء ، ج٤ ، الغزالي ، صـ ٢٩٨ (السابق) .

[5] الإحياء ، ج٤ ، الغزالي ، صـ ٢٩٨ (السابق) .

[6] رواه مسلم ، ج١ ، صـ ٩٣ ، رقم ٩١، ومسند أحمد ، ج١ ، صـ ٣٩٩ رقم ٣٧٨٩ ــ أيضاً مجمع الزوائد ــ والترغيب والترهيب .

الخامس :- المناسبة الخفية بينه وبين المحبوب ، وهذا إنما يتم بتناسب الأرواح كما قال الرسول ﷺ (الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف) [1] ويؤكد الغزالي أن المحبة علي اعتبار هذه الأسباب تزيد وتنقص بحسب اجتماعها وكمالها في المحبوب ، وهذه الأسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالي فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالي [2] وقد قيل للنصراباذي [3](ت ٣٦٧ هـ) ليس لك من المحبة شيء ؟ فقال صدقوا ولكن لي حسراتهم فهو ذا احترق فيه [4] وأنشد ابن عطاء (ت ٣٠٩ هـ) في المحبة :

غرست لأهل الحب غصناً من الهوي ... ولم يكُ يدري ما الهوي أحدٌ قبلي

فـأورقَ أغصـاناً وأيـنعَ صـبوةً ... وأعقبَ لي مراً من الثمرِ المُحلي

وكـلُ جمَـيعِ العاشِـقين هَواهُـم ... إذا نسـبوه كان من ذلك الأصلِ

---

[1] رواه مسلم من حديث أبي هريرة ، ج٤ ، صـ ٢٠٣١ ، رقم ٢٦٣٨ ـ وابن حبان ، ج ١٤ ، صـ ٤٣ ـ وأبي داود في سننة والبخاري ، ج٣ ، صـ ١٢١٣ . رقم ٣١٥٨ .

[2] الإحياء ، ج٤ ، الغزالي ، صـ ٢٩٨ (السابق) .

[3] النصراباذي : هو أبو القاسم بن إبراهيم بن محمد بن محمويه النصراباذي ، شيخ خراسان في وقته ، نيسابوري الأصل والمولد والمنشأ ، كان علي دراية بعلم التاريخ والسير إلي جانب ما كان مختصاً به من علم الحقائق ، فكان أوحد المشايخ في وقته علماً وحالاً ، توفي (٣٦٧ هـ) ، انظر ترجمته في كتاب (المقدمة في التصوف وحقيقته) لأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) تحقيق وتقديم / يوسف زيدان ـ هامش صـ ٢٧ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

[4] الرسالة ـ للقشيري (هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري ـ النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٥هـ) الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، مطبعة ومكتبة مصطفي البالي الحلبي وأولاده بمصر صـ ١٥٧ .

اتفق المحققون من العلماء والمتصوفين أن الحب كمعني والمحبة المقتضية لتحقيق هذا المعني لا يمكن أن يستحقها بكل معانيها وكمالاتها إلا الله وحده ومع ذلك لا يحيط المخلوقون جميعهم أن يوفوا الله تعالي قدره منها ولو حرصوا . حيث إنه سبحانه " يحيط ولا يحاط " وقد وفي الرسول ﷺ القول الحق عندما تكلم في الشكي فانتهي إلي أنه قال " سبحانك لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت علي نفسك "[1] وصدق ﷺ في هذا ــ فالله تعالي بكماله وجلاله وجماله لا يحاط حتي ولو بالمعاني ــ ولكن هذه غايات المخلوقين لا غايات الخالق سبحانه .

وهكذا يؤكد الغزالي أنه " لا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالي ولا مستحق للمحبة سواه " [2] فالغزالي بعد أن بين أسباب المحبة ــ أفرد فصلاً ليبين أن هذه الأسباب لا يمكن أن تجتمع إلا في " حق الله تعالي في جملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالي " [3] وبهذا يبين الغزالي أن كل محبوب لا يحب إلا بنسبته إلي الآخر ــ فحب الرسول لنسبته إلي الله تعالي لأنه " عين حب الله تعالي " [4] وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلي حب الأصل فلا يتجاوز إلي غيره " [5]

---

[1] سنن أبي داود ، ج١ ، صـ ٢٣٢ ، رقم ٨٧٩ .

[2] الإحياء ، الغزالي، صـ ٣٠١ .

[3] الإحياء ، الغزالي، صـ ٣٠١.

[4] الإحياء ، الغزالي، صـ ٣٠١.

[5] الإحياء ، الغزالي، صـ ٣٠١.

فأما عن السبب وهو : حب الإنسان لنفسه وبقائه ، فإن هذا " يقتضي غاية المحبة لله تعالي فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلي الله وبالله " [١]

أما عن السبب الثاني :- وهو حب من أحسن إليه بالعطاء وبالحماية وتحصيل كل الخيرات له وإبعاد كل الشرور عنه فإنه " محبوب لا محالة عنده " [٢] فإذا علم العبد أن (المحسن هو الله تعالي) [٣] وأن عَدَّ جميع إحسانه الواصل إليه وإلي الخلق عامة غير ممكن مصداقاً لقوله تعالي (وإن تعـدوا نعمة الله لا تحصوها) [٤] وأن كل محسن إنما إحسانه يقتضي تحقيق المصالح الخاصة به وأن الله تعالي في إحسانه لا ينتظر فائدة من العبد وكما جاء في الحديث الشريف (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) [٥] .

" فإن كان في الطبع حب المحسنين فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالي إذ الإحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده " [٦]

وأما السبب الثالث :- وهو حب المحسن في نفسه وإن لم يصل إلينا إحسانه فإن القلوب جُبلت علي محبة المثل الأعلي وبغض المستقبحات

---

[١] الإحياء ، للغزالي، صـ ٣٠٢ .

[٢] الإحياء ، للغزالي، صـ ٣٠٢.

[٣] الإحياء ، للغزالي، صـ ٣٠٢ ،

[٤] سورة النحل (آية : ١٨) .

[٥] رواه مسلم ، كتاب البر والصلة (٣/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ ـ رقم ٥٥)

[٦] الإحياء ، للغزالي ، صـ ٣٠٢ ج٤ .

حتي ولو لم تصل إلينا المحبوبات ولم تضرنا المستقبحات بسبب البعد أو أي سبب آخر ، أما الله تعالي " فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان ، وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالي ". [1]

وأما عن السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذاته فهو أمر مجبول في الطباع ولكن إذا علم أن كل مخلوق لا يخلو عن نقص وعن نقائص فيجب أن يتوجه الحب بهذه الكيفية إلي الجميل المطلق وهو (الواحد الذي لا ند له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له) [2]

ولهذا فإن الحب بهذا السبب أقوي من السبب الذي قبله وقد سماه النبي ﷺ (بحسن الظن بالله تعالي) .

وأما السبب الخامس :- فهو المناسبة والمشاكلة فكل شبيه منجذب إلي شبيهه وكما ذكرنا سابقاً من حديث الرسول ﷺ (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف) . وكلما تحقق العبد باتباع ما أمر الله تعالي به واجتناب ما نهي عنه كانت هذه هي أقوي مناسبة لأنه في الحقيقة لا شبهة بين العبد والرب لاختلاف الفردين ــ وكما قال الغزالي فإن هذه " المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة علي النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالي " لا

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، صـ ٣٠٣ ج٤ .

[2] الإحياء ، الغزالي ، صـ ٣٠٦ ، ج٤.

يـــزال عـــبدي يـــتقرب إلـــي بالـــنوافل حتـــي أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به " [1][2]

وهذا السبب يقتضي حب الله تعالي بمناسبة باطنة لا ترجع إلي المشابهة في الصور والأشكال بل إلي معان باطنة . وقد ظن القاصرون بسبب إطلاعهم علي بعض النصوص الدينية المشكلة عليهم في مثل قول الله تعالي " فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي " وقوله " إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ " وكما جاء في الحديث الشريف " إن الله خلق آدم علي صورته " [3] ظن القاصرون " أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا ، وصوروا ، تعالي الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً " [4] وقد وعي الغزالي بفكرة الثاقب أحوال الناس في زمانه ومن قبله في غلطهم في فهم المناسبة فقسم الناس في فهمهم الخاطئ إلي قسمين :

أقسام الناس فيما أخطأوا فيه في فهمهم للحب

الأول : قاصرون مالوا إلي التشبيه الظاهر .

---

[1] رواه البخاري ، ج٣ ، صـــ ١٢١٣ ، رقم ٣١٥٨ .

[2] أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

الحديث ــ البخاري ــ طبعة دار الكتب الحديثة ــ طبعة مصورة عن طبعة دار التراث العربي بالقاهرة ، باب التواضع ، ج٤ ، صـــ ١٢٩ ، ويروي الحديث بأكثر من رواية وإن كان المضمون واحداً ، وانظر أيضاً الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية لجامعه ــ محمد أحمد المدني ــ صححه وعلق عليه محمود أمين النوواي ــ مكتبة الأزهر ــ القاهرة ــ .ط الأولي ، ١٩٨٠ م ، صـــ ١٣٤ ، وأيضاً صـــ ١٤٦ مع اختلاف يسير في الرواية .

[3] الإحياء ، الغزالي ، صـــ ٣٠٧ ، ج٤ ، دار الصابوني ، بدون تاريخ ، والحديث رواه البخاري ؛ج٥ ،صـــ ٢٢٩٩ ، رقم ٥٨٧٣ ــ باب الاستئذان وباب بدء السلام ، وصحيح مسلم ، ج٤ ، صـــ ٢٠١٧ رقم ٢٦١٢ .

[4] الإحياء ــ ج ٤ ص ٣٠٧ .

الثاني : غالون مسرفون جاوزوا حد المناسبة إلي الاتحاد[1] وقالوا بالحلول[2] ، حتي قال بعضهم : أنا الحق ، وضل النصاري في عيسي عليه السلام فقالوا : هو الإله ، وقال آخرون منهم تذرع الناسوت باللاهوت ، وقال آخرون : اتحد به " [3]

والقسم **الثالث** هم الذين فهموا المناسبة علي حقيقتها فانكشف لهم السر فيما أوحي الله تعالي به فعلموا " استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون " [4]

ويؤكد الغزالي في النهاية أن هذه الأسباب مجتمعة ومتظاهرة في " حق الله تعالي تحقيقاً لا مجازاً وفي أعلي الدرجات لا أدناها " [5] وهو المستحق بهذا لأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً " [6] ولم يكن الغزالي بدعاً بين الفقهاء والمتصوفة في فهمه لحقيقة الحب الكامل لله . فهذا هو السراج الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) من قبله يؤكد أن حال المحبة : " لعبد نظر بعينه إلي ما أنعم الله به عليه ، ونظر بقلبه إلي قرب الله

---

(١) الاتحاد : تصيير ذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد وهو محال ـ (ابن عربي ـ الفتوحات المكية ، تحقيق د/ عثمان يحي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب) ط١ ، القاهرة .

(٢) الحلول : اختلف الباحثون في تعريف الحلول ـ فمنهم من قال هو اتحاد جسمين بحيث تكون الإشارة إلي أحدهما إشارة إلي الآخر كحلول ماء الورد في الورد ، دائرة المعارف، بطرس البستاني ٧/ ١٥٧ ، وانظر : المعجم الوسيط ، ١/ ١٩٣، ومحيط المحيط اللبناني ، ١/ ٤٤١، وأيضاً : جامع العلوم الملقب بدستور العلماء في اصطلاحات العلوم والفنون ٢/ ٥٤ للقاضي عبد النبيْ عبد الرسول أحمد شكري .

(٣) المرجع السابق ، الإحياء ، ج٤ .

(٤) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ صـ ٣٠٧ .

(٥) السابق ، صـ ٣٠٧ .

(٦) السابق ، صـ ٣٠٧ .

تعالي منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له ، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلي ما سبق له من الله تعالي من العناية والهداية وقديم حب الله له ، فأحب الله عز وجل " [1] وذكر أبو طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ) في قوت القلوب أن " أبا حذيفة بن عتبة بن زمعة لما تبني سالماً مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش بمولي فقال والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله أشد عليهم قالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أراد أن ينظر إلي رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلي سالم [2] .

أسباب المحبة وتفاوت الناس وضعفهم فيها

إن المحبة ترتبط دائماً عند الصوفية بالسعادة وإن أسعد الخلق حالاً يوم القيامة أقواهم حباً لله تعالي ، وقد علمنا من حكاية سالم مولي أبي حذيفة السابق ذكرها أن المحبة تتفاوت في درجاتها والسعادة الحقة التي يحصل عليها المحبون من مطالعة الحضرة الإلهية يوم القيامة . وكلما " ازدادت المحبة ازدادت اللذة " [3] وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وإنما تحصل المحبة وتتحقق بسببين :

أحدهما : " قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب " [4] وقد قال تعالي " مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ " [5] وبهذا فإن

---

[1] اللمع ــ للسراج الطوسي ، صـ ٨٦ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور .

[2] قوت القلوب ــ أبو طالب المكي ، صـ ٥٩ .

[3] الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[4] الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[5] سورة الأحزاب (الآية : ٤) .

السعادة عند الغزالي وعند الصوفية أيضاً مرتبطة بالقلب فإنه مصدر السعادة والمحبة وهو أداتها عند الصوفية أيضاً فالقلب وحده هو القادر علي تذوق طعم المحبة ، " فكمال الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ... فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص من حب الله " [1] ويظهر هذا واضحاً في قول الشبلي (ت ٣٢٠هـ) عندما سئل عن تفسير قوله تعالي " لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ "[2] فقال " لن تنالوا محبتي وفي قلوبكم محبة غيري ولن تكون المحبة إلا في قلب حي وحياته موت النفس " [3] وفي هذا أيضاً يقول أبو سعيد الخراز :

قلبٌ يُحبك لا يومي إلي أحدٍ ... تكاد همَّتُه تلقاكَ بالخَبَرِ

فؤادُه بكَ مشغوفٌ ومهجَتُهُ ... تذوبُ من قلقِ التقريبِ والنظرِ

سبحانَ مَنْ لو يَشاْ أبديٰ عجائبها ... حتي تري سرَّها في الوجهِ كالقمرِ[4]

ويجب علي المحب الذي يسعي إلي الله تعالي أن يكون مخلصاً لله في حبه فلا " يبقي فيه شرك لغير الله " [5] فكما أن الدنيا مزرعة الآخرة فإنها أيضاً سجن المؤمن فإنها مانعة له من مشاهدة محبوبه وبذلك أيضاً يصبح حب الموت من علامات المحبة . لأنه خلاص من السجن وقدوم علي المحبوب وبهذا فإن أحد أسباب ضعف حب الله تعالي في القلوب " قوة حب

---

[1] سورة آل عمران : آية ٩٢.

[2] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[3] نزهة المجالس ومنتخب النفائس ـ الصفوري ، صـ ٦٢ .

[4] اللمع ـ السراج للطوسي ، صـ ٣٢٦ .

[5] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

الدنيا " وما يتعلق بها من حب الأهل والمال والولد وغيرها ولا يؤتي " أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة " [1]

وهنا تتجلي عبقرية الإمام الغزالي الذي ذاق شراب القوم واتضح له أنهم " أصحاب أحوال لا أصحاب أقوال " فيضع العلاج لقلع حب الدنيا من القلب بسلوك طريق الزهد والمجاهدات لتطهير حياض القلب من كدورات الدنيا ووسخها ــ فيرسم طريقاً أشبه بالشجرة تربتها الإيمان الراسخ ــ جذورها ــ الخوف والرجاء اللذان يقوم عليهما التوبة والصبر ــ فلا سلوك بغير التوبة ولا توبة صحيحة بغير صبر دائم قال تعالي " وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ " [2] فإذا تأكد ذلك في القلب انبثق الزهد في كل " حظوظ الدنيا حتي يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتي يتسع بعده لنزول معرفة الله تعالي وحبه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة " [3] وقد قال ﷺ " الطهور شطر الإيمان " [4] .

السبب الثاني : " لقوة المحبة " قوة معرفة الله تعالي واتساعها واستيلائها علي القلب " [5] ولا يتم ذلك إلا بعد حصول السبب الأول ، فإذا طهر القلب نبتت فيه شجرة المحبة والمعرفة مصداقاً لقوله تعالي " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ " [6] ولا تَنبُتُ المعرفة في القلب إلا بعد تطهيره بالعمل الصالح قال تعالي : " وَالْعَمَلُ

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[2] سورة العصر : آية ٣ .

[3] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[4] أخرجه مسلم ــ ج١ ، صـ ٢٠٣ .

[5] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣١٦ .

[6] سورة إبراهيم (الآية :٢٤) .

الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ " [1] ولا يراد " العمل إلا لهذه المعرفة " وكما أن الدين المعاملة فإن علم " المعاملة غرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته فعندئذ يتزين " بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة " والمحبة تابعة بالضرورة لهذه المعرفة ولا وصول إلي المعرفة إلا " بالفكر الصافي والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر لله تعالي وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته " ويقسم الغزالي الواصلين إلي هذه الرتبة إلي درجتين :

الأولي : الأقوياء : وتكون أول معرفتهم بالله تعالي ؛ ثم به يعرفون غيره .

الثانية : الضعفاء : وتكـــون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلي الفاعل .

وعن الفريق الأول ما حكي عن الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) أنه قال : أشرف كلمة في التوحيد قول أبي بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلي معرفته إلا بالعجز عن معرفته . [2] وأما عن الفريق الآخر فيعنيه قوله تعالي " أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ "[3] والطريق الأول " وهو الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه علي سائر الخلق وهو غامض " [4] وأما الطريق الأسهل الأدنى فإنه غير خارج عن حد الأفهام فإنه عندما يتأكد أنه لا " نسبة بين ما أحاط به علمنا إلي ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلي ما استأثر الله تعالي بعلمه ... فإذا

---

[1] سورة فاطر : آية ١٠ .

[2] اللمع ــ للسراج ، صـــ ١٧٢ .

[3] سورة الأعراف : آية ١٨٥ .

[4] الإحياء ، الغزالي ، صـــ ٣١٧ .

عرف هذا بالنظر فيه وأمثاله ــ فبذلك تزداد المعرفة ... وبزيادة المعرفة تزداد المحبة " [1] وبذلك تحصل اللذة والسعادة في الدنيا والآخرة .

بيان محبة الله تعالي للعبد ومحبة العبد لله تعالي

من الجدير بالذكر في هذا الأمر أن الصوفية قسموا المحبة باعتبار هذا الأمر إلي قسمين :

الأول : هو حب الله تعالي للعبد .

الثاني : هو حب العبد لله تعالي بل لقد زاد هذا الأمر قوة ووضوحاً عندما جعل المتصوفة السعادة مرتبطة بهما وجعلوها أمراً لازماً عنهما سواء كان الحب من الحق للعبد أو من العبد للحق تعالي وأكدوا أن هذه المحبة يترتب عليها علامات يعرف بها أصحابها وهذه العلامات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسعادة وكما قلت فإن الغزالي ليس بدعاً بين المتصوفة بل إنه استطاع أن يرسي قواعد التصوف السني علي الكتاب والسنة .

أما القسم الأول ، وهو محبة الله تعالي للعبد فإن الغزالي يؤكد أن شواهد الشرع من القرآن والسنة متظاهرة علي ذلك . قال تعالي " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " [2] وقال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا " [3] وقال ﷺ (إذا أحب الله تعالي عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) [4] .

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، صـ ٣١٩ .

[2] سورة المائدة : الآية ٥٤ .

[3] سورة الصف : الآية ٤ .

[4] من حديث أنس ــ جاء في الفردوس ولم يخرجه مجمع الزوائد ــ ج ١٠ صـ ١٩٨ .

وهذا يدلنا علي أن من علامات محبة الله لعبده ــ أن يتوب عليه إن تاب قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ " [1] وأيضاً من علاماتها غفران الذنوب قال تعالي" قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ " [2] وأيضاً منها أن الله إذا أحب العبد بسبب تقربه إلي الله بالنوافل وهبه الله الحب فعندئذ (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) [3] ولكن أبا حامد يتعرض لدقيقة من دقائق الفهم حيث يقول (المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلي موافق ملائم ... والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط) [4] وهذا الأمر إن جاز في حق العبد فلا يجوز في حق الله تعالي فمع أن محبة العبد لله تعالي حقيقة وليست مجازاً إلا أن حب الله تعالي للعبد لا يمكن أن يكون بهذا المعني أصلاً) [5] وهو الميل المفرط فإنه إنما " يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذ بنيله وهذا محال علي الله تعالي " [6]

ويؤكد الغزالي بهذا المعني أن ما ورد " من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول .ويرجع معناه إلي كشف الحجاب عن قلبه حتي يراه بقلبه وإلي تمكينه إياه من القرب منه وإلي إرادته ذلك به في الأزل " [7] .

---

[1] سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

[2] سورة آل عمران : آية ٣١ .

[3] رواه البخاري وسبق تخريجه .

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٢٢ .

[5] المرجع السابق ج٤ ، صـ ٣٢٣.

[6] المرجع السابق ج٤ ، صـ ٣٢٣.

[7] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٢٢ .

إذاً الحب بهذا الاعتبار راجع إلي طرفين هامين :

الأول : حب أزلي

فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلي الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب .

الثاني : حب حادث

وهو مضاف إلي الفعل الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده وهو حادث بحدوث السبب المقتضي له [1] كما قال تعالي (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه) فبذلك يصفوا باطنه وترتفع الحجب عن قلبه ويحصل علي درجة القرب من ربه ، " فكل ذلك فعل الله تعالي ولطفه به فهو معني حبه " .[2]

ولابد أن يفهم هنا أن " منتهي للكمال لله تعالي وقرب كل واحد من الله تعالي بقدر كماله " [3] ولا نهاية لكمال الله . إذاً فإن الاختلاف في القرب أو البعد بحسب العبد ، " وسلوك العبد في درجات الكمال متناه فلا مطمع له في المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال " [4] فمحبة الله تعالي للعبد استوجبت تقريبه من نفسه بدفع " الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتي يشاهده كأنه يراه بقلبه " [5] وهذا ما يطلق عليه مقام الإحسان ،

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٢٢ .

[2] المرجع السابق صـ ٣٢٣ .

[3] المرجع السابق صـ ٣٢٣.

[4] المرجع السابق صـ ٣٢٣.

[5] المرجع السابق ، صـ ٣٢٩ .

وإذا كان العبد يشتاق إلي ما فاته فإذا أدرك منه شيئاً التذ بـه . فإن (الشوق والمحبة بهذا المعني محال علي الله تعالي) .[1]

وهنا يحضرنا السؤال الذي يطرح نفسه وهو بم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ يجيب الغزالي بقوله إنه : يستدل عليه بعلاماته . ومن أكبر وأوضح هذه العلامات الابتلاء . قال ﷺ (إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه) [2] فعلامة محبة الله للعبد " أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره " .[3]

ومن أخص علاماته " حبه لله تعالي فإن ذلك يدل علي حب الله تعالي له ".[4] وبهذا يمنحه السعادة والسرور قال أبو تراب النخشبي :[5] (*)

وَمِنَ اللطائفِ أن يُرَي مِنْ عِزْمِهِ ... طَوْعَ الْحَبِيبِ وإنْ أَلَحَّ العاذِلُ

وَمِـنَ الدلائِـلِ أن يُرِي مُتَبَسِّماً ... والقلبُ فيه من الحبيبِ بلابِلُ

وَمِـنَ الدلائِـلِ أن يُرِي متفهِّماً ... لكلام من يحظي لديهِ السائلُ

---

(1) الإحياء ، الغزالى ج ٤ / ص ٣٢٢ .

(2) أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني .

(3) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٢٩ .

(4) المرجع السابق ج٤ ، صـ ٣٢٩.

(5) قوت القلوب ، لأبي طالب المكي ج٢ ، صـ ٧٢ ، مطبعة الأنوار المحمدية ـ باب الخلق ، القاهرة ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

(*) أبو تراب النخشبي ـ عسكر بن محمد بن حصين النخشبي ، من جلة مشايخ خراسان المذكورين بالعلم والتوكل والورع ـ اعتبره السلمي ضمن رجال الطبقة الأولي ، صحب أبا حاتم العطار وحاتم الأصم وغيرهم من كبار مشايخ الصوفية ، وتوفي في البادية ، ويقال نهشته السباع ، ٢٤٥هـ ، انظر (طبقات الصوفية) لأبي عبد الرحمن السلمي وأيضاً ـ الرسالة القشيرية ـ صـ ١٨ ـ مصطفي البابي الحلبي ، الطبعة الثاني ١٣٧٩هـ ، ١٩٥٩م .

وكون العبد محبوباً فأيضاً أن يتولي الله تعالي أمره ظاهره وباطنه سره وجهره وأن يكشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد .

وأما القسم الثاني : وهو محبة العبد لله وعلاماته

يؤكد أبو حامد أنه مهما (ادعت النفس محبة الله تعالي فإن لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة) [1] فإنه من تلبيس الشيطان ويمكننا أن ندرك منزلة المحبة عنده وأنها هي قوام العبادات والطاعات عندما يقول " المحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح [2] ولذلك فهو يعدد علامات كثيرة لمحبة العبد لله تعالي ويثبت من خلالها أن حب الله كان سابقاً عن حب العبد وأن حب العبد المتوجه منه إلي الله إنما هو من حب الله له أيضاً حيث يسَّره إلي هذه المحبة وصدق رسول الله ﷺ حين قال (كل ميسر لما خلق له) [*] .

يقول أبو حامد " فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالي فإنها أيضاً من علامات حب الله تعالي للعبد " [3] وهذا النص من كلام الغزالي يثبت أن المحبة وهب من الله تعالي ، وهذه العلامات الكثيرة منها :

١- حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام .

فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ولا يكون هذا علي حقيقته إلا بترك الدنيا ومفارقتها بالموت " فينبغي أن

---

(١) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ج٤ ، صـ ٣٣٠.

(*) البخاري ، ج٦ ، صـ ٢٧٤٤ ، رقم ٧١١١ ، باب قوله تعالي (فاقرأوا ما تيسر منه) وأيضاً ـ مسلم ج٤ ، صـ ٢٠٤١ ، رقم ٢٦٤٩ .

(٣) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٢٩ .

يكون محباً للموت غير فارٍ منه " [1] وقد قال ﷺ " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه " [2] ، وقد شرط الله سبحانه (لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله) [3] فقال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا " [4] وقد ادعت اليهود أنهم أحباب لله تعالي فاشترط عليهم شرطاً حتي تثبت محبتهم وولايتهم فقال تعالي " فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "[5] وذلك أنهم [ادعوا الولاية وكان من المعلوم أن الولي يتمني لقاء وليه .... واليهودي ليس يتمني لقاء الله فلزم منه أنه ليس بولي لله] [6] ومع هذا فإن العبد قد يكره الموت مع وجود محبة الله تعالي في قلبه وذلك لتعلقه بما في الدنيا من مال وأهل وولد فهذا لا ينفي الحب بل ينفي كماله [لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب] [7] وأيضاً قد تكون كراهية الموت من أجل الاستزاده من الحسنات وهذا لا ينفي كماله لأن العبد قد يكون [في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله تعالي] [8]

---

(١) الإحياء ــ للغزالى ج ٤ ، ص ٣٢٩.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة عن عائشة .

(٣) الإحياء ، للغزالي ، ج٤ ، صـــ ٣٣٠ .

(٤) سورة الصف: آية ٤ .

(٥) سورة البقرة : آية ٩٤ .

(٦) مجموعة القصور العوالي ، ط١ ،(القسطاس المستقيم) صـــ ٣١ ، تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ، مكتبة الجندي .

(٧) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـــ ٣٣٠ .

(٨) المرجع السابق ، صـــ ٣٣١ .

٢- حب السجود لله :-

وذلك لأن السجود من صفات عباد الله الخاضعين له والسجود يقرب المنازل ويرفع الدرجات قال تعالي " وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ " [١] وهو تشبه بالملائكة وهم " عِبَادٌ مُكْرَمُونَ " [٢] وقال بعض السلف [ما من خصلة أحب إلي الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود] [٣] وقد جاء في الحديث (وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتي أحبه] [٤] ولذا فإن (من اقترب منه بعد من كل شيء سواه) [٥]

٣- **أن يكون مؤثراً ما أحبه الله علي ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب الهوى ويعرض عن دعة الكسل** ... فمن بقي مستقراً علي متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه ، بل يترك المحب هوي نفسه كما قيل :

أريدُ وِصَالَهُ ويُريدُ هَجْرِي فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ [٦]

ولذلك مدح الله تعالي المؤثرين له من " يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

---

[١] سورة العلق : آية ١٩ .

[٢] سورة الأنبياء ; آية ٢٦ .

[٣] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ٣٣٠ .

[٤] رواه البخاري ، سبق تخريج الحديث .

[٥] منهاج العارفين ، الغزالي صـ٨٩ ، (القصور العوالي ج١ ـ تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ، مكتبة الجندي ـ مصر ـ بدون طبعة وبدون تاريخ .

[٦] الإحياء ، الغزالي ، صـ ٣٣١ .

كَـانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ " [1] ولذلـك أيضـاً فـإن المحب يؤثر محبوبات محـبوبه فيـتحلل مـن المـال ويـترك فضـوله فكما قيل [حلاله حساب وحـرامه عـذاب] [2] فـإن محبـته إذا طغت نفت محبة ما سواها إلا إذا كـان طلـب المـال مـن أجـل المحبوب يقول الغزالي [واستغن بالله عن غـيره فإنـه روى عـن النبـي ﷺ أنه قال [قال الله تبارك وتعالي لا أطلع علـي قلـب عـبد فـأعلم مـنه حـب العمـل بطاعتي إلا توليت تقويمه وسياسـته] [3] ولـذا فـإن المؤمـن أيضاً كما يؤثر الله تبارك وتعالي فإنه يؤثـر حـب الرسـول ﷺ علـي كل حب بعده وكيف لا يؤثره ويتبع سنته وأمـره ونهـيه وقـد وصـل الله تعالـي [محبته بمحبته وطاعته بطاعته ومتابعـته بمتابعـته فقـال تعالـي" قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ " [4] وقـال " مَـن يُطِـعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ "[5] وقال " إِنَّ الَّذِينَ يُـبَايِعُونَكَ إِنَّمَـا يُـبَايِعُونَ اللَّـهَ " [6] ومـن علامات المحبة أيضاً ــ غلبة الحـب وقمـع الهـوي ــ فـإن " الحـب إذا غلـب قمع الهوى فلم يبق له تتعم بغير المحبوب .. ومن أحب الله فلا يعصيه " [7]

ولذا قال ابن المبارك فيه :

تعصـي الإلـه وأنت تظهر حبه ... هـذا لعمـري فـي الفعـال بديع

لـو كـان حـبك صادقاً لأطعته ... إن المحـب لمـن يحب مطيع

---

[1] سورة الحشر : آية ٩ .

[2] مكاشفة القلوب ــ الغزالي صـ ١٢٩ .

[3] منهاج العارفين ــ الغزالي صـ ٨٩ (القصور العوالي ، ط١)

[4] سورة آل عمران : آية ٣١ .

[5] سورة النساء : آية ٨٠.

[6] سورة الفتح : آية ١٠ .

[7] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٠ .

ولذا أيضاً فإن " الحبيب من اجتنب المناهي " [1] وإن غلبه الحب تؤدي إلي مراقبة الحبيب في كل الأحوال وهي تدفع المحب إلي أن يدعو " بأن اليد العليا خير من اليد السفلي ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف ، وأن العيش من كسب حلال طيب ، خير من أن يتكفف الإنسانُ الناسَ : أعطوه أو منعوه ، ولكنه مع ذلك يتمذهب بمذهب القرآن " [2] ولذا أيضاً فإن العبد يجب أن يكون " مراقباً لنفسه في كل أحواله مع الله .... فالمراقبة [3] عند سائر الصوفية ضرورة من ضرورات الطريق إلي

---

[1] الغزالى ــ الإحياء ــ ج ٤ ص ٣٣١.

[2] المنقذ من الضلال ــ الغزالي ــ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، صـ ١٦٠ ، دار الكتب الحديثة ، ط٧ ، القاهرة ١٩٧٢م .

[3] المراقبة لغة : الحراسة . وفي لسان العرب : (ورقب الشيء يرقبه وراقبه مراقبة ورقاباً : (حكاه ابن الأعرابي ومنه (الرُّقبي) وهي أن يعطي الإنسان لإنسان داراً أو أرضاً فأيهما مات رجع ذلك المال إلي ورثه قال : (وهي من المراقبة ــ سميت بذلك لأن كل واحد منهما يرقب موت صاحبه ..)

وصورتها في البدايات : محافظة الجوارح من المخالفات ، وفي الأبواب : مخالفة قوي النفس تحفظاً من دواعيها ، وأصلها في المعاملات : مراقبة الحق بالقلب علي الدوام في السير إليه بين تعظيم مذهل ومداناه حاملة وسرور باعث . ودرجتها في الأخلاق : مراقبته في تجليه لعبادة بأخلاقه حتي يتخلق بها ، وفي الأودية : مراقبة الحق في التوجه إلي عالم القدس استنزالاً للمعارف والحكم ، وسكوناً إلي حكمه في القسم وتعرضاً للنفحات بترك الرعونات والمعارضات ، وفي الأحوال : الانجذاب إلي المحبوب وشيم برق الكشف من جانب المطلوب وفي الحقائق : مراقبة للصحو في السكر ومراقبة الاتصال في الانفصال)

اصطلاحات الصوفية ــ الكاشاني ، صـ ٢٢٨ ، (حاجي خليفة) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مصطفي عبد الله ــ الشهير ــ بحاجي خليفة (طبعه بالأوفست) منشورات مكتبة المثني ــ بغداد .

الله أو بالأحري داخله في مقامات الطريق وأحواله ولا يغير من الأمر أن يعتبرها البعض مقاماً أو يعتبرها البعض الآخر حالاً " [1] فإذا تحقق العبد بمراقبة الله تعالي فقد ترقي في الطاعة ولكن يخطر بالبال سؤال ــ وهو ــ هل العصيان يضاد أصل المحبة ؟ يري الإمام أبو حامد أن العصيان يضاد " كمال المحبة ولا يضاد أصلها " [2] ووجب علي المؤمن المحب أن يجدد إيمانه ويرقي حبه بقمع الهوي بمقامع الطاعات واستدامة السير علي الطريق المستقيم .

ومن علامات المحبة أيضاً

أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالي لا يفتر لسانه عنه ولا يخلو قلبه منه :- فإن من أحب الله تعالي (أحب ذكره وأحب القرآن الذي هو كلامه وأحب رسول الله ﷺ وأحب كل من ينسب إليه) [3] وقد قال الرسول ﷺ (سبق المفردون سبق المفردون ، فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ فقال المستهترون بذكر الله وضع ذكر الله عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خِفَافاً) [4] ولذا فإن الغزالي يري أن أفضل الذكر حين (استيلاء المذكور علي القلب) [5] فإذا استولي المذكور علي القلب كان هو الذي يحرك أوصاله في الحقيقة فلا يملك الذاكر من نفسه شيئاً فحينئذ (تعجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند

---

(1) فخر الدين الرازي والتصوف ــ د/ الجزار ، صـ ١٦٠ ، نهضة الشرق ــ ط١ ، ١٩٩٦م .

(2) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٢ .

(3) المرجع السابق ، صـ ٣٣٢ .

(4) أخرجه مسلم والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة ــ والترغيب والترهيب ، ج٢ ، صـ ٢٥٦ ، رقم ٢٣٠٦ .

(5) الأربعين ، الغزالي ، صـ ٦٦ .

وجـــود حلاوة الذكـــر حتي لـــو قطع عضو من أعضائه فلا يحس ولا يشعر) [١]

وقد روي عن السري السقطي (ت ٢٥١هـــ) رحمه الله قال " رأيت مع الجرجاني سويقاً يستف منه فقلت : لماذا لا تأكل طعاماً غيره ؟ قال : إني حسبت ما بين المضغ والاستفاف تسعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة " [٢] ولعل القرآن بما أنزل الله تعالي فيه من آيات بينات ودلائل معجزات عمت جميع ما في الأرض والسموات من خبر قد صار من أبلغ الذكر عند الذاكرين ليتقربوا إلي الله تعالي بعلم ما فيه ومعرفة الحلال والحرام حيث صارت أحرفة الحرف بعشر حسنات كما قال ﷺ " لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف " [٣] ولذا فإن الغزالي قد عرف له قدره كما قد عرف قدره أهل السنة والجماعة يقول أبو حامد (فإن القرآن من أعظم الأشياء وأبينها وأجلها وأعزها) [٤] ونراه أيضاً يستشهد بالآيات والأحاديث التي تبين منزلة القرآن وبيان ما فيه يقول قال رسول الله ﷺ (لكل حرف من حروف القرآن حد ولكل حد مطلع) [٥] وقد أشار الله تعالي إلي فضله بقوله " وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [٦] وقال تعالي " لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ" .[٧]

---

[١] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـــ ٣٦ ، المكتبة التوفيقية ، ١٩٩٧م .

[٢] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـــ ٤٢ .

[٣] عبد العظيم المنذري ـــ الترغيب والترهيب ، ج٢ ، صـــ ٢٢٥ . رقم ٢١٨٥ .

[٤] القصور العوالي ، ط١ ، صـــ ١٠٧ ، الرسالة اللدنية (الغزالي) ـــ مكتبة الجندي ـــ القاهرة .

[٥] المرجع السابق صـ١٠٧

[٦] سورة الأنعام : آية ٥٩ .

[٧] سورة ص : آية ٢٩ .

ويظهر أيضاً أن جميع من تكلموا في علوم القرآن أو استفادوا منه أو حاولوا تفسيره وبيان ما فيه كلهم قاصرون عن إدراك كنه ما فيه من علم الله تعالي فقال (فكلهم قالوا ، وبالحقيقة ما قالوا) [1] وبهذا أصبح القرآن عند القدماء والمحدثين (ذكر يتقرب به المبتهلون والمتضرعون) [2] والمتصوفة لا فرق بين متطرفيهم ومعتدليهم قد شغلهم القرآن شغلاً جعل حلاوة الذكر ألذ وأحلي من كل شيء وقد كانت طريقة الغزالي التي وصل بها إلي مناه أنه قعد في خلوته يذكر الله تعالي بالاسم المفرد الله حتي أراه الله تعالي ما أراه عندما جعل شغل نفسه هو الوصول إلي الله تعالي فوجد حلاوة ذلك فقال عندئذ (الحمد لله الذي حلي ألسنة المؤمنين بالذكر) [3]

ومن علامات المحبة أيضاً الأنس بالخلوة ومناجاة الله وتلاوة آياته والتهجد بالليل ــ وذلك لأن المحب يقطع نفسه لمحبوبه فيجب أن يختلي به وهذه الدرجة من المحبة يعتبرها أبو حامد (أقل درجات الحب) ولكننا في أثناء حديثه نراها من أرقي الدرجات في المحبة فيقول (المحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه) فمعلوم أن الاطمئنان بالمحبوب يذهب كل بوادر الخوف والهلع ومراقبة الناس من النفس فلا يطمئن المحب إلا إلي الله ولا يذكر سواه وصدق الله حيث قال " الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" [1] وأبو حامد يدرك أيضاً أن المحبة والأنس بالله تدفع الهموم وتشغل المحب عن الدنيا فيقول في ذلك (ومهما غلب علي المحب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتي لا يفهم أمور الدنيا مـــا لم تتكرر علي

---

[1] القصور العوالي ، ط١ ، الرسالة اللدنية صـــ ١٠٨ (الغزالي) .

[2] الفلسفة الإسلامية ــ منهج وتطبيق ، د/ إبراهيم مدكور ، صـــ ٥٩ ــ دار المعارف ــ ط ٣ ، ١٩٨٣م .

[3] كيمياء السعادة ــ الغزالي ، صـــ ١٠٤ (مع المنقذ من الضلال) ، مكتبة الجندي .

سمعه مراراً) [٢] وبهذا يلازم الحبيب حبيبه (بصفة دائمة فلا يغفل عنه لحظة واحدة) .[٣]

ويصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ) في ديوانه هذا تصويراً رائعاً فيقول:

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولا جلست إلي قوم أحدثهم ... إلا وأنت حديثي بين جلاسي

ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً ... إلا وأنت بقلبي بين وسواسي

ولا هممت بشرب الماء من عطش ... إلا رأيت خيالاً منك في الكاسِ[٤]

وقد قال الصديق رضي الله عنه وأرضاه (ت ١٣هـ) : " من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر " [٥]

ومن علامات محبة العبد لله تعالي التي يذكرها الغزالي – عدم التأسف علي ما فات مما سوي الله تعالي وأن يعظم أسف المحب علي فوات كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالي وطاعته فلا يجزع لشيء أصابه في الدنيا أو لنعمة حجبت عنه فما دام قلبه متعلق بالله تعالي وأن دينه محفوظ فكل شيء هين ــ وقد علم المحبون (أن ما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم

---

[١] سورة الرعد : آية ٢٨ .

[٢] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٣.

[٣] د/ فيصل بدير عون ــ (التصوف الإسلامي ــ الطريق والرجال) ، الناشر / مكتبة سعيد رأفت ــ جامعة عين شمس ــ القاهرة ١٩٨٣م .

[٤] الحلاج : ديوان الحلاج ــ تحقيق د/ كامل مصطفي الشيبي ــ بغداد .

[٥] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٣ .

فبحسن تدبير الله لهم) [1] وقد قالت رابعة العدوية [2](ت ١٨٥هـ) في مناجاتها :

ألا ليتك تصفو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضي والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الود فالكل هينٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

وقد كان رسول الله ﷺ يطيل السجود فتقول له أم المؤمنين عائشة أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول (أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً) [3] ولعل أبا حامد بوصفه معلماً وأستاذاً للجيل قد وعي هذا فأكد عليه وأن العبد لا يقطع أنسه بالله ولا يأسف إلا علي ساعة خلت من غير الله فعاش بالله وانفعل به فعلم أنه (مهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٣ .

[2] رابعة العدوية ـ هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية ـ كانت مولاه لآل عتيك ـ وهي مثل رائع من أمثلة الحياة الروحية في الإسلام في القرن الثاني الهجري ولها معان وأقوال مأثورة في معان كثيرة تناولها الصوفية المتأخرون فيما بينهم وقد ترجم لها أكثر من ترجموا للتصوف الإسلامي (انظر ترجمتها في وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج١ ، صـ ٢٢٧) وأيضاً ـ الروض الفائق للحريفيش ـ القاهرة ، ١٣٠٤ هـ ، صـ ١١٧ . وأيضاً – كشف المحجوب للهجويري ـ ترجمة نيكولسون ، لندن ١٩١١م ، صـ ٣٨ ، والبيان والتبيين ـ للجاحظ ـ تحقيق / عبد السلام هارون ، ط٢ ، ١٩٦٨م ، ج٣ ، صـ ١٢٧ ، وأيضاً (مدخل إلي التصوف ـ د/ أبو الوفا التفتازاني) نشر دار الثقافة ١٩٨٩م ، ط ٣ ، صـ ٨٤ ، وأيضاً الرسالة للقشيري ، صـ ١٤٧ .

[3] البخاري ، ج١ ، صـ ٣٨٠ ، رقم ١٠٧٨ .

ومسلم ، ج٤ ، صـ ٢١٧١ ، رقم ٢٨١٩ .

الترغيب والترهيب ، للمنذري ، ج١ ، صـ ٢٠٤١ ، رقم ٩١٥.

المحبوب لم يقدر إلا ما فيه خيره ويذكر قوله تعالي " [1] " وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ [2]

ومن العلامات أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها " فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوي محبوبه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً علي بدنه " [3] وقد جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : (مكتوب علي ساق العرش أنا مطيع من أطاعني ومحب من أحبني ومجيب من دعاني ، وغافر لمن استغفرني) وكل هذه المنح والعطايا معلوم أنها ترقق القلب وتديم الخدمة بل تجعلها عذبة كصائد السمك الذي لا يلتفت إلي برودة ماء النهر في الشتاء لأن قلبه متعلق بحصول مقصوده وهو إخراج السمك والتكسب به وفي مكاشفة القلوب للغزالي ــ يقول : قال رجل للحسن البصري[4] (ت ١١٠ هـ) رحمه الله : " إني لا أجد للطاعة لذة فقال له : لعلك نظرت في وجه من لا يخاف الله ، العبودية أن تترك الأشياء كلها

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٣ .

[2] سورة البقرة : آية ٢١٦ .

[3] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٤ .

[4] الحسن البصري (ت ١١٠هـ) هو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد ولد في المدينة ٢١هـ ، وكانت أمه مولاه لأم سلمة زوج النبي ﷺ ، ونشأ نشأة صالحة وتفقه في الدين وأخذ عن بعض الصحابة وتروي بعض الروايات أن الإمام علياً رضي الله عنه قد شهد له بالعلم وأعجب به . وقد وصفه خالد بن صفوان فقال عنه (كان أشبه الناس علانية بسريره ، وسريره بعلانية وآخذ الناس لنفسه بما يأمر به غيره ، يا له من رجل استغني عما في أيدي الناس من دنياهم واحتاجوا إلي ما في يديه من دينهم)

انظر ترجمته في (وفيات الأعيان ، ج١ ، صـ ١٦٠ ؛ وأيضاً ــ العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج٢ ، صـ ٢٣٠ ، وأيضاً ــ مدخل إلي التصوف ــ د/ أبو الوفا التفتازاني ، دار الثقافة ١٩٨٩م ، ط٣ ، صـ ٧٤ .

لله " [1] وترك الأشياء لله يملأ القلب بالرضا والقناعة والإخلاص والخوف والشكر علي نعم الله وهذا عين الطاعة وبهذا نعلم يقيناً أن (كل حب صار غالباً قهر لا محالة ما هو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه) [2] فإذا واظب علي الطاعات لله تعالي وعرف أنه هو الأحق بالطاعة عما سواه فعساه بعد ذلك (أن يكتب من المحبين فيأتيه الموت وهو مشتاق إلي مولاه ومولاه أشد شوقاً إلي لقاءه) [3] وذلك علي حد تعبير الغزالي رحمه الله تعالي .

ومن العلامات أيضاً أن يكون مشفقاً علي عباد الله شديداً علي أعداء الله " وعلي كل من يقارف شيئاً مما يكرهه الله " [4] كما قال تعالي " أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ [5] وهنا نجد فهم الغزالي الثاقب المتجرد يفطن إلي أنه طالما أن العلماء أشد الناس خشية لله لما وهبهم من العلم نجده يعتبر محبتهم واجبة وإذا كان الشيطان أشد الأعداء البغضاء إلي الله تعالي المحرض عالي المنكرات والخبائث فإن عداوته لابد وأن تكون علي رأس العداوات الظاهرة والباطنة فيؤكد علي هذا بقوله (يجب علي المؤمن أن يحب العلماء والصلحاء ويلازم مجالستهم ويسأل ما لابد له ويتعظ بنصحهم

---

[1] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ٢٤ ، تحقيق / عبد المحسن سليمان ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ـ ١٩٩٧م .

[2] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٤ .

[3] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ١٧٨ .

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٤ .

[5] سورة الفتح (٢٩)

ويجتنب الأعمال القبيحة ويتخذ الشيطان عدواً) [1] كما قال تعالي : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا " [2]

ومنها أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم [3]

والخوف هو (عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال) [4] كما قال بذلك الغزالي والخوف محمود ومراتبه بحسب قوته ولذلك فإن أشد الناس خوفاً هم العلماء وذلك لقوة معرفتهم بالخالق تعالي واطلاعهم علي مشاهد الجلال والجمال والكمال وأستدل بقول الواسطي ت ٣٢٠ هـ) رحمه الله [5] :(الخوف حجاب بين الله تعالي وبين العبد) [6] يمنعه من ملامسة الذنوب وما يبعده عن حضرة القرب من الله تعالي والخوف لا يضاد المحبة بل يري الغزالي أن (إدراك العظمة يوجب الهيبة

---

[1] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ٥٩ .

[2] سورة فاطر (٦) .

[3] التعظيم : هو تعظيم حكم الله تعالي علي عباده بما يجري عليهم بأن يرضى به ، ولا ينبغي له عوج ، ولا يدفع بعلم ، ولا يطلب به ثواب إن كان خطاباً (وفي اللغة) نقيض التحقير : ففي القاموس العظم .. (وعظمه تعظيماً وأعظمه : فخمه وكبره) وهو في الأخلاق : التعظيم اللازم للتواضع لله تعالي بالتذلل والخضوع قضاء لحق الربوبية وعزها في مقابلة زل العبودية ودرجته في الأحوال : تعظيم المحب للمحبوب الذي يقضي به سلطان العشق عند استيلاء الشوق والذوق ، وهو أول أودية الفناء)

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ١٥٥ .

[5] الواسطي (ت ٣٢٠هـ) هو : أبو بكر محمد بن موسى الواسطي خراساني الأصل من فرغانه . صحب الجنيد والنوري عالم كثير الشأن أقام بمرو ومات بها بعد العشرين وثلثمائه ، القشيري ، الرسالة ، صـ ٢٦ ، طبع ـ البابي الحلبي .

[6] الإحياء ، ج ٤ ص ١٥٥ .

كما أن إدراك الجمال يوجب المحب)[1] فيقسم الغزالي مخاوف المحبين في مقام المحبة إلي مراتب :

الأولي :- خوف الإعراض : وهو أن يعرض عن الحب بعد أن أقبل عليه .

الثاني :- خوف الحجاب[2]: وهو أشد من الأول فلو حجب العبد عن حظيرة الأنس والقرب كان حجابه هلاكاً .

الثالث :- وهو أشد منهما : وهو خوف الإبعاد (وإنما تعظم هيبة[3] البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب[4] في القرب)[5] ولهذا شيبت هود وأخواتها رسول الله ﷺ وهو سيد المحبين ، (ولا يحن إلي القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يُمكَّن من بساط القرب)[6]

الرابع : خوف الوقوف وسلب المزيد ويري الغزالي أن هذه الرتبة من مخاوف المحبين هو (عقوبة لهم علي الفتور في الطريق والالتفات إلي

---

(1) الإحياء ج٤ ، صـ ٣٣٥ .

(2) الحجاب : انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحقائق ، صـ ٨١ ، الرسالة ـ القشيري ، السابق ، طبع ـ الحلبي .

(3) القرب : عبارة عن الفناء بما سبق في الأزل من العهد الذي بين الحق والعبد في قوله تعالي (ألست بربكم : قالوا بلي) سورة الأعراف : ١٧٢ ، مصطلحات الصوفية ـ للكاشاني ، صـ ١٦١ .

(4) الهيبة : هي أثر مشاهدة جلال الحضرة الإلهية في القلب وهو جمال الجلال (ابن عربي ـ الفتوحات المكية) .

(5) الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣٣٥.

(6) الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣٣٥.

غير المحبوب) [1] كما روي أن الله تعالي قال : (إن أدني ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا علي طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي) [2]

الخامس : خوف ما لا يدرك بعد فوته وقد كان إبراهيم بن أدهم[3] (ت١٦١هـ) يذكر رفاقه بالموت وأنه لا يأتيهم إلا بغتة فيقول لصاحبه (إنك لا تدري متي يفاجئك أمر ربك) [4] فإذا علم السالك أن مرتبته عند محبوبه تتقطع بالموت خاف أن يفوته منه ما يقربه منه فكان سبباً لأن يفكر في القرب فكان داعية له (إلي ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله) [5] وسمع إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) قائلاً يقول وهو في سياحة وكان علي الجبل :

كل شيء منك مغفو ... ر سوي الإعراض عنا
قد وهبنا لك ما فات ... فهب لنا ما فات منا

---

(١) الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣٣٥.

(٢) الإحياء ، ج٤ ، صـ ٣٣٥.

(٣) إبراهيم بن أدهم (ت١٦١ هـ) شيخ الصوفية : أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم ولد بمدينة بلخ بخراسان ، وكان من أبناء الملوك . يحكي أنه خرج في شبابه للصيد مع أقرانه فناداه هاتف خفي : يا إبراهيم ـ ألهذا خلقت ... ؟ وقد سلك طريق الصوفية بعد سماعه لهذا الهاتف ، وخرج إلي مكة وصحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، ثم دخل الشام وظل بها حتي توفي سنة ١٦١هـ وقد ترجم له معظم من ترجم للصوفية من متصوفة ومستشرقين ولا يوجد كتاب من كتب الطبقات يخلو عن ذكره .

انظر (طبقات الصوفية ـ للسلمي ، صـ ٣٢ وما بعدها وأيضاً في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكولسون ، صـ ٤٨ ، وانظر ـ مدخل إلي التصوف ـ د/ أبو الوفا التفتازاني ، صـ ٨٢

(٤) الكواكب الدرية ، المناوي ،زين الدين محمد عبد الرؤوف (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ـ تصحيح وتعليق : الشيخ محمود حسن ربيع ، مطبعة دورسة تجليد الأنوار ، ط٢ ، صـ ٧٧ ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .

(٥) الصوفية والفقراء ـ ابن تيمية ، صـ ٢٠ .

فاضطرب وغشي عليه ..

السادس : خوف السلو[1] عنه (فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلي إلا بلطف جديد) واللطف منّة إلهية تغلف كل مصيبة لا يقدر عليها المرء فمعلوم أن كل مصيبة تخفي لطفاً ورحمة وبراً ولكن الله يبتلي عباده بما يشاء ولكن (إن تسلي العبد عن ذلك اللطف والطلب كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته) [2] وهذا كما قلت من الابتلاء الذي هدي الله الغزالي إلي وصفه بالسلو فكما (أن من أوصاف الله تعالي ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه مـا يلـوح فيورث السلـو كأوصاف الجبرية[3] والعزة والاستغناء) [1] فإذا تمكن بالعبد أوصاف المحبة كان منعماً وإذا ابتلي بما يورث السلو عن ذلك كان ذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان .

---

(1) السلو : السلوى : كل ما سلاّ وسلاه : وعنه ــ سُلُوّاً وسُلوَاناً : نسيه وطابت نفسه بعد فراقه و(سلاه) طيب نفسه ، تسلي فلان بكذا : طيب نفسه به ــ المعجم الوجيز ، صـ ٣٢٠

(2) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٦ .

(3) الجبر : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلي الله تعالي ، هذا ويتفرق الجبريون فرقاً فمنهم الجبرية الخالصة ، وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة علي الفعل أصلاً ، ومنهم الجبرية المتوسطة وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً ، ومن أثبت للقدرة الحادثة أثراً في الفعل تحت مقولة الكسب فلا يعد جبرياً خالصاً .... انظر في تفصيل ذلك ــ الشهرستاني : الملل والنحل ، تحقيق / محمد سيد كيلاني ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٧٦م ، ج١ ، صـ ٨٥ ، د/ مراد وهبة : المعجم الفلسفي ــ دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ط٣ ، صـ ١٤٢، ١٤٢ .

وقد جعل الإمام الغزالي الجبرية من أهل الأهواء وقسم أهل الأهواء ست فرق وكل فرقة منها تفترق اثنتي عشرة فرقة ــ وهم منحرفون عن الصراط المستقيم فمن نفي المشيئة والكسب عن نفسه فهو جبري ــ (الغزالي روضة الطالبين وعمدة السالكين ــ ضمن القصور

السابع : خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلي حب غيره وهذا في حق العبد مصنية تقع به تفوق مصيبة الموت لأن (المحبة مع الله أصل الشرك) [٢] وذلك هو المقت وله مقدمات وهي السلو (والإعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملالة لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها) [٣] وعلي المحب أن يحذر من هذه المخاوف بتصفية نفسه بالمراقبة فهذا (دليل صدق الحب) [٤] وليعلم أن من عبد الله (من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالي فقربه ومكنه وعلمه) [٥] والغزالي يقرر العلاقة بين المحبة والخوف والمعرفة فبينهم علاقة ترابط قوية فإن الذي (غلبت عليه المحبة حتي اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا اليسير يقال هو في مقام المحبة ويعد من المحبين) [٦] وذلك لأن الخوف يعدل ويخفف غلبة الحب علي القلب عندما تستولي المعرفة ولا تثبت طاقة البشر لذلك .

وقد كان الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) يخاف خوفاً شديداً في مقام المحبة أن لا يتوج حبه بالوصل والاتصال مع المحبوب فيقول :

=العوالي ، ج٤ ، تحقيق الشيخ / محمد مصطفي أبو العلا ، مكتبة الجندي ، ١٩٧٣م ، صـ ٣٩ ، ٤٠ .

[١] المرجع السابق .

[٢] إغاثة اللهفان ، ابن القيم ،ج٢ ، صـ ١٣٦ ، دار الكتب العلمية ببيروت .

[٣] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٦ .

[٤] المرجع السابق .

[٥] المرجع السابق .

[٦] المرجع السابق .

ما زلت أطفو في بحار الهوي ... يرفعني الموج وأنحط

فتارة يرفعني موجهاً ... وتارة أهوي وأتغط

حتي إذا صيرني في الهوي ... إلي مكان ما له شط

ناديت يا من لم أبح باسمه ... ولم أخنه في الهوى قط

تقيك نفسي السوء من حكم ... ما كان هذا بيننا شرط [1]

ودخل الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) علي مريض يعوده فوجده في سكرات الموت ، (فنظر إلي كربه وشدة ما نزل به ، فرجع إلي أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم فقالوا له : " الطعام يرحمك الله ، فقال يا أهلاه ، عليكم بطعامكم وشرابكم فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتي ألقاه " [2]

ومن علامات المحبة التي يؤكد عليها الغزالي (كتمان المحبة واجتناب الدعوة والتوخي في إظهار الوجد والمحبة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرة علي سره) [3] وقد جعل الغزالي كتمان المحبة أدباً من آداب الصوفي [4] الذي يقتفي أثر الرسول ﷺ وعليه أن لا يرائي بالمحبة وأن لا يكثر من ذكرها ليعلم حاله فإنه نقص فيها ولكن (قد يكون للمحب سكرة في حبه حتي يدهش فيه وتضرب أحواله فيظهر حبه عليه .... وهو معذور

---

[1] ديوان الحلاج ، صـ ٤٣ ـ للحسين بن منصور الحلاج . تحقيق / د. كامل مصطفي الشيبي ، مكتبة المثني ـ بيغداد .

[2] التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ـ القرطبي تحقيق د/ أحمد حجازي السقا ، مطبعة الحلبي ، ج١ ، صـ ٢١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

[3] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٧ .

[4] الأدب في الدين ـ الغزالي ، صـ ١٥٨ ، مع المنقذ من الضلال ـ ط الجندي .

لأنه مقهور) [1] والمحبين في هذا الأمر صنفان ــ قادر علي الكتمان وعاجز عنه فأما القادر فيقول :

وقالوا: قريب ، قلت : ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجري؟ ؟

فمالـــي مـــن غير ذكر ــ بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدري

والعاجز عنه يقول :

ومـــن قلـــبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

ومن علامات المحبة التي اتفق علي علو درجاتها وسمو مقاماتها أهل السنة والجماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والصوفية . الجهاد في سبيل الله تعالي حتي أن المحب قد نذر نفسه لله تعالي فلم يبق شيئاً وصدقهم الله تعالي في قبول محبتهم فأخبر عنهم بقوله تعالي " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا "[2] فالجهاد (إذاً هو مقصود الشريعة ، وهو يشمل الإنكار باليد والإنكار باللسان) [3] و ذلك لأنه هو الميزان الذي تستقيم به حياة الناس في الداخل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الخارج في مجاهدة المجترئين علي دين الله ومحارمه وقطع السبيل علي المؤمنين . وقد جعل ابن القيم (ت ٧٥١هـ) الجهاد دليلاً علي المحبة الصحيحة ــ حيث قال (فالمحبوب الحق الذي لا تنبغي المحبة إلا له وكل محبة سوي محبته فالمحبة له باطلة ــ أولي بأن يشرع لعباده الجهاد الذي هو غاية ما يتقربون

---

[1] الإحياء ، للغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٧ .

[2] سورة الأحزاب :الآية ٢٣ .

[3] أعمال القلوب بين الصوفية وعلماء أهل السنة د/ مصطفي حلمي ، صـ ١٢٨ ــ دار الدعوة ــ الإسكندرية ــ ١٩٩٣م .

به إلي إلاههم وربهم) [1] والغزالي يتابع السلف من أهل السنة في فضل الجهاد وأنه لا يكاد يعدله فضل فعقد باباً في كتابه المكاشفة [2] عن فضل الجهاد ثم صدره بقوله تعالي " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " [3] وقد بين أبو حامد بناء علي الآثار الواردة من السنة وأفعال الصحابة . أن الجهاد أفضل الأعمال وأن العبد يتقرب إلي الله بالأعمال الصالحة حتي يكون محبوبه فيروى أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ مر بشعب (فيه عيينة من ماء عذبة فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ولن أفعل حتي أستأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام ــ فقال : " لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله تعالي فواق ناقة وجبت له الجنة) [4] فجعل رسول الله الغزو في سبيل الله سبباً للمغفرة ودخول الجنة ومع أن الغزالي كسائر الصوفية يعتبر العزلة والخلوة من آداب المريد السالك للطريق لكي تصفو نفسه وتتكشف له الأنوار الإلهية نجده هنا يكسر هذه القاعدة ويقول بما هو خير منها فيقول (فإذا كان الصحابي الجليل لم يأذن له رسول الله ﷺ في العزلة مع اجتهاده في الطاعات وتعاطيه من الطيبات بل أرشده ﷺ إلي الجهاد فكيف يليق بنا تركه مع قلة طاعاتنا وكثرة سيئاتنا وتعاطينا ما جهل حله من

---

[1] مفتاح دار السعادة ، ج٢ ، صـ ٤ ــ ابن قيّم الجوزيه ــ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ــ مطبعة السعادة ــ القاهرة ١٣٢٣هـ .

[2] مكاشفة القلوب ــ تحقيق / عبد المحسن سليمان ــ المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ، ١٩٩٧م .

[3] سورة الحجرات : الآية ١٥ .

[4] مكاشفة القلوب ــ الغزالي ، صـ ٣٤٥ ، تحقيق / عبد المحسن سليمان ــ المكتبة التوفيقية

الأقوات وفساد العزائم والنيات) [1] ويقسم الغزالي الجهاد إلي مراتب ثلاث فقد حكي عن بعض أهل المعرفة أنه قال [2] : الجهاد علي ثلاثة أصناف : جهاد مع الكفار وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالي : " يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "[3] وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالي : " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "[4] وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذي في قوله تعالي " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ " [5] وهذه المرتبة الأخيرة للجهاد التي يراها الغزالي أعلاها لا تقتصر فقط علي مجاهدة النفس فلفظة(فينا) فيها قصر وتحديد البيان أن هذا الجهاد لا تشوبه شائبة من شرك لذا كان أعلي قمته وذروة سنامه هو بذل النفس في سبيل الله تعالي فليس بعدها غال.

ويعلل الغزالي رأيه بأن أعلي درجات الجهاد هي جهاد النفس لأن الجهاد معها أدوم وجهاد الكفار يكون في وقت دون وقت والغازي يري العدو ولا يري الشيطان وأن للشيطان معيناً من النفس وهو الهوي وليس للكافر من نفسك معين ولأنك إذا قتلت الكافر تجد النصر والغنيمة والشهادة والجنة ، ولا تقدر أن تقتل الشيطان وإن قتلك الشيطان تقع في عقوبة الرحمن) [6] ومن هذا يتضح أن الغزالي يري مع السلف أن الجهاد أعلي مراتب المحبة لأنه بيع كامل للنفس في سبيل الله ولكنه درجات فأعلاه درجة

---

[1] للغزالى ، مكاشفة القلوب صـ ٣٤٥ .

[2] المرجع السابق ، صـ ٣٤٤ .

[3] سورة المائدة : آية ٥٤ .

[4] سورة النحل : آية ١٢٥ .

[5] سورة العنكبوت : آية ٦ .

[6] مكاشفة للقلوب ، الغزالي ، صـ ٢٢ .

ما كان دائماً مع عدو لا يرى وهو هنا لا يعطل الفريضة ولا يقول بالقعود عنها فهو يعلم كما يعلم أهل السنة كلهم أن (الجنة ترضي منك بأداء الفرائض ، والنار تندفع عنك بترك المعاصي ، والمحبة لا تقع منك إلا ببذل الروح) [١] وبكلامنا عن الجهاد وأنه من أرقي درجات المحبة علي الإطلاق فقد اتضح لنا أن محبة العبد لله تعالي لها علامات وهي بمثابة الأدلة والبراهين وقد أكد الغزالي أن من علامات (محبة العبد لله تعالي فإنها أيضاً من علامات حب الله تعالي للعبد) [٢] فهي محبة وهبها الله تعالي له ولكن هناك أنواع من المحبة تنافي وتضاد محبة الله تعالي قد يقع فيها بعض الناس فتقدح في المحبة أو في كمالها . ومن أشدها (تكذيب النبي ﷺ في شيء مما جاء به) [٣] فإنه كفر بيّن فلا يتصور أن يتوجه المؤمن بالحب إلي من كذبوا الرسول ﷺ فإنه ينافي الإيمان إذ (الإيمان تصديقه في جميع ما جاء به) [٤] وبالتالي ينافي المحبة قليلها وكثيرها .

ومنه أيضاً الركون إلي الظالمين والقعود إليهم . فنجد الغزالي يحذر من مخالطة الأمراء والسلاطين الظالمين فيوجب علي من يري مخالطتهم أن يدع (مدحهم وثنائهم لأن الله تعالي يغضب إذا مدح الفاسق والظالم ، ومن دعي لطول بقائهم فقد أحب أن يعصي الله في أرضه) [٥] وقد نبه الله علي

---

[١] الفوائد ، ابن القيم ، الإمام / شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م ، صـ ٧٢ .

[٢] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٩ .

[٣] فيصل التفرقة ـ الغزالي ، صـ ١٢٨ ، مجموعة القصور العوالي ، ج١ ، ط الجندي ، تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا .

[٤] المرجع السابق ، صـ ١٢٨ .

[٥] أيها الولد ـ الغزالي ، صـ ١٧٨ ، القصور العوالي ، ج١ ، ط الجندي ، تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا .

ذلك في كتابه حيث قال " وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ "[1] وعليه أيضاً أن لا يحب طول أعمارهم وذلك (لأن في محبة بقاء الظالم إرادة في الظلم علي عباد الله تعالي وإرادة خراب العالم) [2]

ويصف الغزالي أيضاً الأدوار التي تنافي المحبة وهي في ذات الوقت من تزيين الشيطان واتباع النفس والهوي ومنها حب التزين من الإناث والثياب والدار فإن الشيطان إذا رأي ذلك غالباً علي قلب الإنسان باض فيه وفرخ والمرء إذا تعلق بكل هذا حتي استوفت من حياته كلها لم يبق له شيء من محبة الله تعالي ومن مضادات المحبة أيضاً (البخل وخوف الفقر) [3] فإن البخل يؤدي إلي الحرص والبخل ينافي الإيمان لأنه دلالة علي عدم الثقة في رزق الله تعالي .

ومن نواقض المحبة أيضاً (التعصب للمذاهب والأهواء والأحقاد علي الخصوم) [4] فعنده أن الاعتقاد بمذهب معين إنما نشأ أساساً بسبب النشأة الأولي في بلد ما أو لتقليد الآباء وهذا ما أنكره القرآن علي الكفار الذين كانوا يعبدون الأصنام بدعوة أنهم (يقربونهم من الله زلفي) أو أن هذا ما (وجدوا عليه آبائهم) فكان هذا مما يحول (بيني وبين إدراك الحق والحقيقة) [5] وكما قال الغزالي فإن ذلك مما (يهلك العباد والفساق جميعاً) [6] ومن شرط

---

[1] سورة هود : آية ١١٣ .

[2] أيها الولد ــ الغزالي ، صـ ١٨٧ القصور العوالي ج١ ، ط الجندي .

[3] مكاشفة القلوب ــ للغزالي ، صـ ٦٢ .

[4] المرجع السابق ، صـ ٦٢ .

[5] التصوف الإسلامي ، فيصل بدير عون ، صـ ٢٣٣ .

[6] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ٦٢ .

المريد عند المحققين من الصوفية والعلماء ومنهم الغزالي (أن لا ينتمي إلي مذهب معين ولا يتعصب لتيار بعينه) [1]

ومما ينافي المحبة ويضادها أيضاً (سوء الظن بالمسلمين) [2] وذلك لأن الظن أكذب الحديث وينشر الفساد في المجتمع وينفي روابط الألفة المبنية علي حسن الظن وعلاجه (الاحتراز عنه وعن تهمة الأشرار وأيضاً قطع كل هذه النواقض من القلب ويعينه علي ذلك مداومة ذكر الله تعالي) [3] لأن الذكر يجلي القلب ويفرغه مما سوي الله تعالي ومن أشد ما ينافي المحبة عند الغزالي دعوى إسقاط التكاليف الشرعية التي ادعاها كثير من المتحللين والمستهترين بأوامر الدين من المنتسبين إلي الصوفية وهذه (بدعة ضالة أخذت تتسرب إلي بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً ولا في الجانب الصوفي خصوصاً) [4]

قال أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ) لأحد جلسائه : (قم بنا حتي ننظر إلي هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، فمضينا إليه : فلما خرج من بيته ، ودخل المسجد ، رمي ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال (هذا غير مأمون علي أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً علي ما يدعيه ؟)

وكان الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) سيد هذه الطائفة يقول (الطرق كلها مسدودة علي الخلق ، إلا علي من اقتفي أثر رسول الله ﷺ واتبع سنته ، ولزم طريقته) وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد ، وقال (أهل المعرفة بالله يصلون

---

(١) التصوف الإسلامي ، فيصل بدير عون ، صـ ٢٣٣ .

(٢) مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، صـ ٦٣ .

(٤) المنقذ من الضلال (أبحاث عن التصوف) تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، صـ ١٦١ .

إلي ترك الحركات من باب البر ، والتقرب إلي الله عز وجل ، فقال الجنيد : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا) والغزالي رحمه الله كسلفه من السلف الصالح يقرر أن (كل من خالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة فهو بدعة مردودة) [1] ويتناول الأمر أيضاً بدقة وإحكام حيث يقول (واعلم أن سالك سبيل الله تعالي ، قليـل ، والمدعي فيـه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له :

العلامة الأولي : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة علي توقيفاته ، إيراداً ، وإصداراً ، وإقداماً ، وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب علي جملة النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟!

فإن قلت : فهل تنتهي رتبة السالك إلي الحد الذي ينحط عنه فيه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور ؟ .

أقول لك : اعلم إن هذا عين الغرور ، وإن المحققين قالوا : (لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ويمشي علي الماء ، وهو يتعاطي أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان) وهو الحق .

ويقرر الغزالي أيضاً أنه علي المرء أن يزكي نفسه (عن الأخلاق الذميمة ويشتغل بمحبة الله تعالي وطاعته وعبادته والاتصاف بالأوصاف الحسنة) [2] بل نراه يضع الحدود للسالك ويبين له غوائل الطريق في غير ما موضع واحسب أن الغزالي هنا قد وقف ــ كعادته ــ موقف المعلم حيث

---

[1] مكاشفة القلوب ، الغزالي ، صـ ٣٥١ .

[2] أيها الولد ــ الغزالي ، صـ ١٨٧ ، من القصور العوالي ، ج١ .

يقول (والذي يفسد علي السالك[1] سلوكه شيئان اتباع الرخص بالتأويلات ، والاقتداء بأهل الغلط متبعي الشهوات ... وعلي المريد أن يشغل كل عضو فيه ومعني فيه بوظيفة ندبه الله ورسوله إليها وترك ما كره الله ورسوله له ، وللورع معانقاً ولأهوائه تاركاً مطلقاً) [2] وذلك لأن الطريق وعر وشاق وطويل وغايته عظيمة وهو الوصول إلي المحبوب والتمتع بالقرب منه والأنس به لذا فإن أول ما يجب علي سالك الطريق هو الاعتقاد السليم الخالي عن البدع) [3] وهو بهذا يضع حداً لمن يدعون الوصول وأنهم كوشفوا بالمشاهدات الربانية فتكلموا بشطحات لا تليق وحسبها القاصرون منتهي الطريق ولكنها عوائق في طريق المحبة الموصل إلي حضرة علام الغيوب فعلي السالك المحب أن يتيقن (أن طريق الله لا تقدر أن تصل إليه بغير ما لم تؤمر به ولا تصل إليه أيضاً بالشطحات[4] والترهات الصوفية ترسماً بل لا تصل إلي هذا الطريق إلا بقطع الهوي والشهوة وحظوظ النفس بسيف المجاهدات ولا بوثبات الشطحات والترهات ، فإن زعمت الوصول اغتراراً منك بما تبديه من الكلام الرقيق وصفاء الأيام والأوقات وطلاقة اللسان مع تعلق القلب بالشهوات والغفلة كل ذلك علامة علي الشقاء والوبال ، وإذا لم تقهر الهوي والنفس بالمجاهدات وتصيرها تحت الشرع لم يكن القلب حياً

---

(1) السالك : هو الذي مشي علي المقامات بحاله لا بعلمه فكان العلم له عيناً . (ابن عربي ــ الفتوحات المكية)

(2) روضة الطالبين وعمدة السالكين ، الغزالي ، صـ ٢٣ ، من القصور العوالي ، ج٤ .

(3) خلاصة التصانيف في التصوف ، الغزالي ، صـ ١٦٧ ، من القصور العوالي ، ج٤ .

(4) الشطح : (ابن عربي ــ الفتوحات المكية) عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوة وهي نادرة أن توجد من المحققين)

اللمع ــ للسراج ، صـ ٤٢٢ ، الشطح كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوة إلا أن يكون صاحبه مستلباً ومحفوظاً .

بنور المعرفة) [1] وقد سئل النبي ﷺ (عن قوم تركوا العمل بالدين وقالوا : نحسن الظن بالله تعالي فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) وعلامات محبة العبد هي علامات علي الحب ذاته وثمراته وذلك لأن الحب شجرة ثمارها طيبة وهذه الشجرة هي منحة إلهية فقد أكد أبو حامد أن علامات محبة العبد لله هي أيضاً من علامات محبة الله تعالي للعبد . فهو الذي وفقه وهيأه وأمكنه من هذه المحبة فلو اعتبرناها رحمة فكل رحمة من الله وكل توفيق منه أيضاً وقد قال الرسول ﷺ (لا يدخل أحد الجنة بعمله ولكن برحمة الله قالوا وأنت يا رسول الله قال وإياي إلا أن يتغمدني الله برحمته) [2] وبالجملة (جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ومالا يثمره الحب فهو اتباع الهوي وهو من رزائل الأخلاق) [3]

قال يحي بن معاذ [4] (ت ٢٥٨ هـ) في علامات المحبة :

ومـــن الدلائل أن تراه مسافراً نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومـــن الدلائل زهده فيما يري مـــن دار زل والنعيم الزائل

---

(١) الغزالي ــ خلاصة التصانيف في التصوف ــ صـ ١٦٧ ، من القصور العوالي ، ج٤ ، ط الجندي

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٤) ، ومسلم (صفات المنافقين / ٧٨) رقم (٢٨١٨) عن موسي بن عقبه قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف يحدث عن عائشة مرفوعاً .. الحديث وانظر (ابن القيم) حادي الأرواح إلي بلاد الأفراح ، صـ ٦٧ ــ تحقيق/ أيمن محمد محمد عرفة ــ المكتبة التوفيقية / القاهرة .

(٣) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٨ .

(٤) يحي بن معاذ الرازي ، الملقب بالواعظ من كبار الصوفية بالري ، كان من أسرة عرفت بالزهد والتقشف ، خرج مع أحد إخوته إلي خراسان ، وزار نيسابور وبلغ من بلاد فارس ، وله مؤلفات في التصوف ، إذ يذكره الكلاباذي ضمن الذين صنفوا في المعاملات الروحية ، كما اشتهرت عنه عبارات صوفية وأقوال مأثورة في شكل حكم ذوقية .. من ذلك قوله : الدنيا دار أشغال ، والآخرة دار أهوال ، ولا يزال العبد بين الأهوال والأشغال ، حتي يستقر به القرار إما إلي جنة وإما إلي نار ، وتوفي في بعض قري جورجان ــ بخراسان سنة ٢٥٨هـ (هامش ــ المقدمة في التصوف ــ للسلمي ــ تحقيق وتقديم ــ يوسف زيدان ــ مكتبة الكليات الأزهرية ــ ط١ ــ سنة ١٩٨٧م .

وانظر هامش صـ ٤٣ ، كتاب التعرف للكلاباذي ، تحقيق / محمود أمين النواوي سنة ١٩٩٢م وأيضاً : الرسالة القشيرية ، صـ ١٧ .

ومـــن الدلائـــل أن تـــراه باكياً ... أن قـــد رآه علي قبيح فعائل
ومـــن الدلائـــل أن تراه مسلماً ... كل الأمور إلي المليك العادل
ومـــن الدلائـــل أن تراه راضياً ... بملـــيكه فـــي كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الوري ... والقلب محزون كقلب الثاكل

فلنتعرف علي ثمرات المحبة عند الغزالي وهو كغيره من رواد التصوف وأساتذته يري أن جميع المقامات التي يسلكها السالك والتي تأتي قبل المحبة ما هي إلا مقدمات لها وما من مقام أو حال يأتي بعدها إلا وهو ثمرة من ثمارها .

---

(١) الإحياء ، ج٤ ، صـــ ٣٣٨ .

الشوق (١)

" وحال الشوق حال شريف " [٢] وهو من ثمرات المحبة عند الصوفية عامة وهو من الأحوال المهمة في الطريق إلي الله تعالي وذلك لما فيه من تهييج لما في القلوب وتيقظ لها وإثارة الرغبة والطلب فيها وإبعاد لها عن الغفلة وقد روي كما جاء عن السراج الطوسي (ت ٣٧٨هـ) أن الرسول ﷺ كان يقول : (أسئلك لذة النظر إلي وجهك والشوق إلي لقائك) [٣] والغزالي يري أن الشوق ثمرة من ثمرات المحبة التي تعبر عما يدور في

---

(١) الشوق : جاء في القاموس (الشوق) نزاع النفس وحركة الهوى وجاء في (عوارف المعارف للسهروردي) بهامش الإحياء ، صـ ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، من كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة ، فتمتليء عينه من النقد ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلي ما بعد الموت .

وحركة الشوق إلي الله بالمحبة المنبعثة من مطالعة تجليات الصفات . وفي الأخلاق : الاشتياق إلي التخلق بأخلاقه ، وفي الأصول : الارتياح إلي لقائه ، والتروح بنور جماله . وفي الحقائق : طلب العيان بعين المعشوق والانفصال عن الكل بالوصول إلي المطلوب وفي النهايات : الاشتياق مع الوصول إلي شهوده بجميع التجليات ومع الشهود إلي بروزه في مظاهر الكاينات (مصطلحات الصوفية ــ للكاشاني) صـ ٣١٢ ، وجاء في كتاب (حياة القلوب وكيفية الوصول إلي المحبوب) صـ ١٨٧ ، الشوق ــ أصل حال المحب أن يقطع تشوقه عن كل شيء سوى محبوبه فمن نظر إلي سواه فهو محجوب عن مولاه .

كتاب حياة القلوب وكيفية الوصول إلي المحبوب ــ بهامش ــ قوت القلوب لعماد الدين الأموي ــ مطبعة الأنوار المحمدية سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، القاهرة .

والشوق ثمرة المحبة ولا يوصف الله تعالي بالشوق وإن وصف بالمحبة ووصفه بالشوق مجاز علي سبيل المشاكلة ، هامش صـ ١٦٣ ــ ١٦٤ (الرسالة ــ منتخبات من شرح شيخ الإسلام ــ أبي زكريا الأنصاري الشافعي ؛ ط٢ ، ١٩٥٩ م ، مصطفي البالي الحلبي .

(٢) اللمع (السراج الطوسي) ، صـ ٩٤ .

(٣) المرجع السابق ، صـ ٩٤

نفس المحب من الخوف والانقطاع والرغبة في الاطلاع علي جلال الحق فلا يستقر القلب ولا يستطيع تحمل البعد فيقول (فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلي منتهي الجمال واستشعر قصوره عن

الإطلاع علي كنه الجلال انبعث القلب إلي الطلب وانزعج له وهاج) [١]

ويري أبو حامد أن الشوق وسيلة لما بعده حيث أن المشتاق يشتاق إلي غائب وهذا لعدم التمكن والقرب فيظل مشتاقاً حتي يصل فإذا وصل سكن وطاب له المقام ، لذا فإن الشوق عنده حال تابعة للمحبة وذكر أن الله تعالي قال لداوود عليه السلام : (كـن لي مشتاقاً وبي متأنساً ومـن سواي مستوحشاً) [٢] ويري أبو حامد أن القلب يرتفع بالمحبة لله وعلامته (ثلاثة أشياء ، وجود الموافقة وفقد المخالفة ودوام الشوق) [٣] وبهذا يكون الشوق من علامات المحبة ومن درجاتها وقد صنف أبو حامد ــ رحمه الله ــ رسالة عظيمة تدل علي مدي ما وهبه الله تعالي من نعمة العقل وروعة البيان وصفاء القلب والإيمان ألا وهي رسالة الطير التي بين فيها حال المشتاقين الذين حدا بهم الشوق إلي مليكهم أن يكابدوا المشاق ويقطعوا المفازات ويستعذبوا المهلكات لكي يصلوا إلي محبوبهم بعد أن (جمعتهم داعية الشوق وهمة الطلب فصمموا العزم علي النهوض) [٤] إلي جناب الملكوت والتروح بظلال الجلال والجمال والجبروت (والاستظلال بظلها ، والمثول بفنائها ، والإستعاد بخدمتها فتناشدوا وقالوا) [٥]

---

[١] الإحياء ، للغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٩ .

[٢] المرجع السابق ، صـ ٣٤٠ .

[٣] منهاج العارفين ، صـ ٨٣ ، من القصور العوالي ، ج١ ، مكتبة الجندي .

[٤] رسالة الطير ــ الغزالي ، صـ ٥٠ (من القصور العوالي ، ج٢ ، مكتبة الجندي ، تحقيق الشيخ / محمد مصطفي أبو العلا .

[٥] رسالة الطير ، الغزالي ، صـ ٥٠ .

قوموا إلي الدار من ليلي نحييها نعم ونسألها عن بعض أهليها

ولا يستطيع المرء أن يحصل السعادة أو أن يتمتع بلذتها إلا بالشوق ولا يتم ذلك إلا بتزكية النفس بالتخلي عن علائق البدن فإن الناظر (كلما ازداد استبصاراً ازداد للسعادة استعداداً وكأنه ليس يتبرأ الإنسان عن هذا العالم وعلائقه إلا أن يكون أكَّد العلاقة مع ذلك العالم فصار له شوق إلي ما هناك وعشق لما هناك يصده عن الالتفات إلي ما خلفه جملة) [1] وهذه السعادة الحقيقة لا تتم إلا بإصلاح الجزء العملي من النفس فإذا تم ذلك حصلت السعادة بالعيش الحقيقي وهو عيش الآخرة [وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون] [2] فيقوي الشوق إليها والشوق ثمرة المحبة فهو تاج لها والمحبة تقوي بسبب ازدياد المعرفة والمعرفة بحر (لا ساحل له والإحاطة بكنه جلال الله محال ــ وكلما كثرت المعرفة بالله وصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت ــ كثر الابتهاج باللقاء وعظم) [3] وبهذا تحصل السعادة لذا فإن الشوق له منزلة كبيرة عند الصوفية المحبين وقد سئل الجنيد من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحب فقال : (إنما يكون سروراً ووجداً به من شدة الشوق إليه) [4] وقال عبد الله بن خفيف (ت ٣٩١ هـ) [5] (الشوق ارتياح القلوب بالوجد إلي اللقاء والقرب)

---

(١) الغزالي ، معارج القدس في مدارج معرفة النفس ،صـ ١٧٣ ــ تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ، مكتبة الجندي ، القاهرة .

(٢) سورة العنكبوت : آية ٦٤ .

(٣) معارج القدس ، الغزالي ، صـ ١٨٥ .

(٤) نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية ، اليافعي ، ط١ ، صـ ١٩٣ .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن خفيف بن اسفكشاذ الضبي : شيخ شيراز ، كانت أمه نيسابورية وكان شيخ المشايخ في وقته ، صحب رويم البغدادي وطاهر المقدسي ، وأبا العباس بن عطاء ، وعثمان الدمشقي وكان ابن خفيف عالما بعلوم الظاهر والباطن ، وأسند الحديث النبوي ، ومن عباراته الذوقية ، ليس أضر علي المريد مُسامحة النفس في ركوب الرخص وقبول التأويلات ودخل عليه رجل من الصوفية فقال له : بُلي وسوسة من الشيطان : فقال ابن خفيف : عهدي بالصوفية أنهم يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر منهم وتوفي سنة ٣٩١ هـ .وذكر القشيري في الرسالة أنه توفي عام ٣٩١هـ (الرسالة ، القشيري ، صـ ٣١)

[1] وقوله هذا يدل علي أن الشوق سبب في الراحة والسكينة والطمأنينة التي يسعي إليها المحبون وإلي نفس الغاية من الشوق قسم الطوسي (ت ٣٧٨ هـ) رحمه الله أهل الشوق إلي ثلاث مراتب (فمنهم من اشتاق إلي ما وعد الله تعالي لأوليائه من الثواب والكرامة ، والفضل والرضوان ومنهم من اشتاق إلي محبوبه من شدة محبته وتبرمه بلقائه شوقاً إلي لقائه ، ومنهم من شاهد قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فينعم قلبه بذكره ، وقال : إنما يشتاق إلي غائب وهو حاضر لا يغيب ، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق ، فهو مشتاق بلا شوق ، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق ، وهو لا يصف نفسه بالشوق والشوق يقتضي الأنس [2] والشوق تابع يزيد بالمحبة وينقص (فعلي قدر المحبة يكون الشوق) [3] .

---

[1] الرسالة القشيرية ، القشيري صـ ١٦٣ .

[2] اللمع ، السراج الطوسي ، صـ ٩٥ ، تحقيق د / عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور .

[3] الرسالة للقشيري ، صـ ١٦٣ ، ط ١٩٥٩ ، مصطفي البابي الحلبي

الأنس [1]

والأنس ثمرة من أجل ثمار المحبة والشوق مقدم له فإن المشتاق إذا غلب عليه (الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً علي مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير الملتفت إلي ما لا يدركه بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه فيسمي استبشاره أنساً) ومن هنا نجد الغزالي يحدد معني آخر للأنس وهو الاستبشار ومعناه استبشار القلب أي فرحه بمطالعة الجمال الإلهي وقد قال الطوسي (ت ٣٧٨هـ) يرحمه الله تعالي [معني الأنس بالله تعالي : الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به ، ولا يتهيأ أن يعبر عنه بأكثر من هذا] [2] والعبد في حال الأنس قد تطهر عما دون الله تعالي وهام بوجدانه في الله تعالي حتي سلا عن الخلق وأنس بسيده عندها تم له الاجتباء من الله وذلك كما ذكر الطوسي أيضاً

---

(١) الأنس : سئل الجنيد (٢٩٧هـ) عن الأنس ما هو ؟ فقال : الأنس ارتفاع الحشمه مع وجود الهيبة . وسئل ذو النون (ت ٢٤٥هـ) فقال هو انبساط المحب إلي المحبوب ، وقال أيضاً : هو أن يستأنس بالأنكار فيغيب عن رؤية الأغيار (انظر ــ التعرف لمذهب أهل التصوف ــ للكلاباذي) صـ ١٢٤ ، ١٢٥ .

وقد جمع القشيري في رسالته بين الهيبة والأنس . قال : وهي فوق القبض والبسط . فالهيبة أعلي من القبض والأنس أتم من البسط .

وحق الأنس : صحوة بحق ، فكل مستأنس صاح ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب (أي الحظ)

انظر صـ ٢١٣ (الرسالة ج١ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، و د/ محمود ابن الشريف ، دار الكتب الحديثة ، ط١ ، ١٩٧٢م .

و يري الغزالي ــ رحمه الله تعالي ــ أن حقيقة الأنس استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالي وجماله وكماله) انظر الغزالي ــ روضة الطالبين وعمدة السالكين ــ تحقيق / محمد مصطفي أبو العلا ، طبعة الجندي صـ ٦١ .

(٢) اللمع ، السراج الطوس ، صـ ٩٦ .

حيث قال [الأنس بالله : لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالي ، فعند ذلك آنسه الله تعالي به] [1] لذا فإن العبد أيضاً إذا غلبه الفرح بمطالعة الجمال الإلهي [وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته] [2] وبهذا يري الغزالي أن الأنس بالله من أسباب تحقيق اللذة والسعادة في الدنيا والآخرة شأنه في ذلك شأن المحبة [3] والمعرفة حيث أن كليهما يحقق السعادة المرجوة التي يسعي إليها المحبون والعابدون وقد روي القشيري في رسالته ما يؤكد ذلك ويوضحه . حيث قال :

نحن في أكمل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غيب ونحن حضور [4]

وسئل إبراهيم المارستاني عن الأنس فقال : [فرح القلب بالمحبوب] [5] وأبو حامد ــ رحمه الله ــ يري في الأنس خاصية عظيمة أنه [من أجل مواريث المحبة] [6] وفرّق بين الشوق والأنس ، مع أن كليهما من ثمرات المحبة إلا أن الشوق عنده مقدمة من مقدمات الأنس وإن المستغرق بالفرح بما ناله من الأنس ولذته غير ملتفت إلي ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف فأجاب عندما قيل له : [أنت مشتاق ؟ فقال : لا إنما الشوق إلي غائب ، فإذا كان الغائب

---

(1) السراج الطوسى / اللمع / صـ ٦٩ .

(2) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٩ .

(3) المحبة ميراث التوحيد والمعرفة وكل مقام وحال قبلها فلها يرد ومنها يستفاد (الغزالي ، روضة الطالبين وعمدة السالكين ، صـ ٥٩ .

(4) الرسالة ، القشيري ، صـ ١٦٣ .

(5) التعرف ، الكلاباذي ، صـ ١٢٥ .

(6) روضة الطالبين ، الغزالي ، صـ ٧٧ .

حاضراً فإلى من يشتاق ؟] [1] وللأنس علامات يعرف بها منها [أن من غلبه حال الأنس لم تكن له شهوته إلا في الانفراد والخلوة] [2] وحكي أن إبراهيم ابن أدهم قد هام علي وجهه مستوحشاً من الخلق مستأنساً بالله يردد ترانيم حبه في خلوته عن الناس وقد نزل يوماً من الجبل فقيل له [من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله] [3] وذلك لأن الأنس بالله يلازم التوحش من الخلق وكل [ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء علي القلب] [4] وسئل الشبلي رحمه الله عن الأنس فقال [وحشتك منك ، ومن نفسك ومن الكون] [5] ومن علامات الأنس أيضاً (ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر] [6] وهذه كما يقول الغزالي علامته الخاصة وقد بين أبو حامد ــ رحمه الله ــ أن الأنس والشوق والمحبة تجوز في حق الله تعالي وذلك خلافاً لبعض المتكلمين الذين أنكروا الأنس والشوق والمحبة لظنهم أن ذلك يدل علي التشبيه ومن هؤلاء (أحمد بن غالب) المتكلم المعروف ــ بغلام الخليل ــ حيث أنكر علي الجنيد (ت ٢٩٧هـ) وأبي الحسين النوري (ت ٢٩٥ هـ)

---

[1] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٩ وانظر أيضاً روضة الطالبين صـ ٦١ .

[2] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٩ .

[3] الحلية ، أبو نعيم ج٨ ، صـ ٢١ ، الإحياء ، الغزالي ج٤ ، صـ ٣٣٩ ، روضات المحبين ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ج١ ، صـ ١٤٥ .

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٠ .

[5] اللمع ، الطوسي ، صـ ٩٧ .

[6] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٠ .

[1] وغيرهما ــ الحديث في الحب والشوق والعشق والأنس حتي أنكر بعض المتكلمين مقام الرضا وقال (ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور) [2] ويري أبو حامد أن هؤلاء جهلة لأنهم جهلوا (أن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات وأن لذة معرفتها أغلب علي ذوي القلوب) [3] وهذا القول من أبي حامد يسوقنا إلي رأيه في التفرقة بين أنواع العلوم حيث إن العلم عنده علمان علم يدرك بالفكر والاستذكار وعلم يدرك بموهبة من الله تعالي وهو ما يطلق عليه الحديث أو البصيرة أو العلم اللدني وهو فضل من الله تعالي ولا ينكره إلا قاصر ولذا فإنه يري أن أصحاب هذه الآراء جهلة وأن كلامهم كله [كلام ناقص قاصر لم يطلع منْ مقامات الدين إلا علي القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر] [4] وأصحاب هذا الرأي قد يكون لهم العذر ولكن عذرهم غير مقبول وذلك لأن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب] [5]

---

[1] أبو الحسين أحمد بن محمد النوري : ويعرف بابن البغوي ــ خرساني الأصل بغدادي المولد والنشأة ، وهو من أجل مشايخ الصوفية وعلمائهم ــ صحب السري القطي ومحمد بن القصاب ، ومن أقواله : ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ولكنه أخلاق ، توفي النوري سنة ٢٩٥ ومن أقواله : أعز الأشياء في زماننا شيئان ، عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة وقال أبو أحمد الغازلي : ما رأيت أعبد من النوري ، قيل : ولا الجنيد ، قال : ولا الجنيد ، وقال النوري : كانت المراقع غطاء علي الدر فصارت اليوم مزابل علي جيف .

[2] الإحياء ، الغزالي ،ج٤ ، صـ ٣٤٠ .

[3] المرجع السابق ، صـ ٣٤٠ .

[4] المرجع السابق ، ج٤ ، صـ ٣٤٠ .

[5] المرجع السابق ، صـ ٣٤٠ .

وقد قيل :

الأنـــس بـــالله لا يحويـــه بطال وليس يدركه بالحول محتال
والآنســـون رجـــال كلهم نجب وكلهـــم صـــفوة لله عمـــال

والأنس عند الغزالي كما هو عند الصوفية مثمر وثمره طيب وهذا إنما يدل علي أن الشجرة الأم كانت شجرة طيبة فامتد فرعها في السماء حتي أثمرت الأنس وأثمر الأنس أيضاً فأنس العبد إلي ربه وليس بعد ذلك مطلب وليست الشجرة إلا المحبة الإلهية [والأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالي] [١] وليس هذا إلا لمن أقيم في مقام الأنس [وليس لغيرهم أن يتشبه بهم] [٢] وقد سئل الجنيد (ت ٢٩٧هـ) رحمه الله عن الأنس بالله فقال : (ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة) [٣] ومعني ارتفاع الحشمة [أن يكون الرجاء أغلب عليه من الخوف] ولذا فإن الغزالي يري أن [الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض .. فإن الذي أقيم في مقام الأنس يلاطف ويحتمل] [٤] ويضرب أبو حامد الأمثال علي ذلك من حال موسي مع الله تعالي وأيضاً حال أخوه يوسف عليه السلام مع ما قدموا من جرم في حق أخيهم وأبيهم وأنفسهم وقد رأي الغزالي أن القرآن الكريم عبر عن أن بعض الناس يقبل منهم ما لا يقبل من غيرهم وهذا لتمكنهم من مقام الأنس والعبد عندما يحظي بمؤانسة الحبيب ــ وهو الله تعالي ــ يكفيه هذا من مؤانسة العبيد وهو ما أراده إبراهيم بن

---

[١] الإحياء ، ج٤ ، ص ٣٤٢ .

[٢] المرجع السابق ص ٣٤٢.

[٣] الرسالة القشيرية . تحقيق د/ عبد الحليم محمود صـ ٢١٣ ، ج١ .

[٤] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٢ .، هامش صـ ٦٤ .

أدهم (ت١٦١هـ) عندما قال لأحد تلامذته (كن واحداً جامعياً ومن ربك ذا أنس ومن الناس وحشياً) [١] والذي نفهمه من كلام الغزالي حول الأنس وثمراته أن الغزالي رغم تصنيفه للأنس بأنه حال متولدة عن المحبة إلا أنه يراه أيضاً مقاماً وذلك لتمكن العبد فيه حتي أثمر الأنس وذلك في قوله [الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل] [٢] وقال ذاكراً فضل عيسي عليه السلام [فكان عيسي عليه السلام من المفضلين ولإدلاله سلم علي نفسه – بأمر الله – فقال " وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا "[٣] وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في – مقام الأنس – [٤] وبهذا فقد جعل الغزالي الأنس مقاماً وحالاً في ذات الوقت .

الرضا

(والرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلي مقامات المقربين) [٥]

والأمر ذاته الذي حدث مع الأنس حين جعله حالاً ومقاماً هو ذاته أيضاً مع الرضا فمع كونه من ثمار المحبة فهو بهذا حال ناتجة عنها إلا أنه في هذه العبارة السابقة يجعله مقاماً من مقامات المقربين وكما اختلف الغزالي في تحديد مفهوم الرضا ومكانته بَيْن الأحوال والمقامات وقع الإختلاف أيضاً بين كثير ممن قعدوا للتصوف أو ممن تحققوا بحقائقه حول كونه حالاً أو مقاماً ويرى الغزالي أن الرضا كالسياج الذي يمنع الاغترار عن الإنسان عندما [يصادف في نفسه من خطرات تخطر فيظن أنها حقيقة الحب لله

---

(١) الكواكب الدرية ، المناوي ، صـ٧٧ .

(٢) الإحياء ، الغزالي ،ج٤ ، صـ٣٤٢ .

(٣) سورة مريم : آية ٣٣ .

(٤) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ٣٤٢ .

(٥) المرجع السابق ، صـ ٣٤٣ .

تعالي] [1] وقد أورد الغزالي الدلائل الشرعية التي تؤكد أن الرضا قد حاز الفضيلة بالكتاب والسنة حيث قال تعالي " رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ " [2] ، وقال صلي الله عليه وسلم [إن الله تعالي يتجلي للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك] وقال تعالي " هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ " [3] ويؤكد كلامه أيضاً قوله عن هذه الآية إن (منتهي الإحسان رضي الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالي) [4] فكأن الإحسان يوهب للعبد بعدما يقدم العبد كل الرضا عن الله تعالي ــ وبهذا يصبح الرضا من باب الكسب ــ أي رضا العبد عن الله تعالي ــ فإذا تحقق الرضا في نفس العبد أثمر الإحسان من الله تعالي وإن كان المفهوم من الآية الكريمة (رضي الله عنهم ورضوا عنه) أن سابقة الوهب من الله تعالي هي التي منحتهم رضاهم عن الله وهو الشأن الحادث مع المحبة نفسها والرضا ثمرة من ثمار المحبة فبهذا تصبح المحبة وثمراتها وهب من الله تعالي للعبد . ولأن الحب (يؤثر في نفس المحب ويبلغ منه مبلغاً كبيراً فيحملها من المشقة والألم ما تطيق وما لا تطيق ولكن المحب برغم هذه المشقة وهذا الألم لا يشكو ولا يتبرم ، بل هو راض عن كل ما يصيبه من أهوال المحبة محتمل له) [5] لذا فإن الله تعالي رفع (الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة) [6] فقال

---

[1] الأربعين في أصول الدين ــ للغزالي ، صـ ٢٦٤ .

[2] سورة المائدة : آية ١١٩ ، وسورة البينة : آية ٨ .

[3] سورة الرحمن : آية ٦٠ .

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٣ .

[5] ابن الفارض ، الحب الإلهي . د / محمد مصطفي حلمي ، صـ ١٨٢ ، دار المعارف ١٩٧١م .

[6] الإحياء ، للغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٣٤ .

تعالي " وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [1] وقال تعالي " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ "[2] ونتيجة لما سبق وأن الرضا هو أكبر الرضوان من الله تعالي . لذا فإن أكبر السعادات وأعظم اللذات التي يحصلها العبد يوم القيامة وهي ــ لذة النظر إلي وجه الله الكريم ــ مرتبطة بالرضا لذا فقد جعل الله سؤال العباد للرضا بعد (النظر نهاية التفضيل) وبهذا يصبح الرضا هو غاية الغايات ومنتهي الحاجات لأن العبد إذا ظفر يو م القيامة بالرؤيا والنظر إلي وجه الله الكريم خاف أن تزول عنه ــ فطلب المزيد فاستحضر غاية أمانيه وهو رضا الله تعالي عنه ــ حتي يستديم النظر إلي وجه الله الكريم (فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقد قال تعالي " وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ"[3] وقد حرص الصوفية علي تحصيل السعادة عن طريق الرضا وذلك لأنه يشيع السكينة والطمأنينة وراحة البال التي تشعرهم بالسعادة وقد قال الرسول ﷺ (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله تعالي ربـــا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا) [4] وكما أن الرضا عند الغزالي يؤكد السعادة المتحققة بلذة النظر إلي وجه الله العظيم فإن الصوفية من قبله رأوا هذا أيضاً وقد سار هو علي نهجهم والصوفية من بعده كذلك وقد كان للغزالي ــ رحمه الله ــ سابقة الفضل من بعد الله عليهم في هذا أيضاً بما بينه من فضيلة الرضا في التحقق بالسعادة في الدنيا والآخرة . قال ذو النون (٢٤٥هـــ) : (الرضا سرور القلب بمر القضاء) [5] ومعلوم أن هذا في الدنيا وأما في

---

(١) سورة الصف : آية ١٢ .

(٢) سورة العنكبوت : آية ٤٥ .

(٣) سورة ق (٣٥)

(٤) رواه مسلم ، ج٣ ، صـــ ١٤٩٦

(٥) التعرف ، للكلاباذي ، صـــ ١٢٠ .

الآخرة فكما قال سهل (ت ٢٨٣ هـ) : (إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ، فطوبي لهم وحسن مآب) [١] وقد كان إبراهيم ابن أدهم (١٦١هـ) ينشد في حال الرضا قائلاً :

وتلـــذذ بحـــبه إن ... فـــي حبـــــه الشفـــا
ثـــم ســـلم لأمـــــره ... وأرض عنه بما قضي [٢]

وذلك لأنه عندما يشعر المحب بلذة المحبة يستعذب بسببها كل الصعاب فيرضي عن الله لأنه انكشف له حقيقة اللطف من وراء القضاء وكما قيل (الخيرة فيم قدره الله تعالي) [٣] ولذا اعتبر الباحثون والدارسون والمتحققون أن الرضا مقام من أهم مقامات السائرين إلي الله تعالي لأنه يدل علي (كمال معرفة العبد بربه ولأنه دليل علي حسن حال العبد مع ربه في حال الشدة والرخاء) [٤] وقد قسم الصوفية الرضا باعتبار العلاقة بين العبد والرب إلي درجتين وقد وافقهم الغزالي علي ذلك .

والدرجة الأولي : وهي رضا الله سبحانه علي العباد ، أما الدرجة الثانية فهي رضا العبد عن الله سبحانه وتعالي وقد استند في ذلك إلي قوله تعالي " رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ "[٥]

أما الدرجة الأولي فهي أرقاهما وأدومهما لأنها لا تناسب لها إلا بذات الله تعالي وهو سبحانه يحيط ولا يحاط وهذا الرضا (فضل من الله) [١] وهو

---

[١] الكلاباذى : التعرف ص ١٢٠ .

[٢] علم القلوب ،لأبي طالب المكي ، صـ ٤٤ ، تحقيق د/ عبد القادر أحمد عطا ـ مكتبة القاهرة ،ط١ ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

[٣] الأربعين ، الغزالي ، صـ ٢٦٨ .

[٤] فخر الدين الرازي والتصوف ، د/ الجزار ، صـ ١١٢ ـ مكتبة نهضة الشرق ، ١٩٩٦م

[٥] سورة البينة : آية ٨ .

رضا (تقصرُ أفهام الخلق عن دركه) [٢] وهو سبب دوام النظر إلي وجهه كما قدمنا ذلك وهو الغاية عند الصوفية حيث يستوي عندهم المنع والعطاء ، والقلة والكثرة بحيث يصبح هم العبد هماً واحداً .

قال ابن عطاء (ت ٣٠٩هـ) رحمه الله : (الرضا نظر القلب إلي قديم اختيار الله تعالي للعبد ، لأن يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضي به ويترك السخط) [٣] وقال أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ) رحمه الله : (ليس أعمال الخلق بالذي يرضيه ولا بالذي يسخطه ، ولكنه رضا عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا وسخط علي قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط) [٤] وهذا القول موافق للسنة النبوية ـ فإن الله تعالي ـ إذا أحب عبداً استعمله .

وأما الدرجة الثانية : فهي التي تتمثل في رضا العباد عن الله تعالي ومالهم لا يرضون وقد منحهم رضوانه وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة وأعطاهم في دار الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر . بل رضي عنهم فلا يسخط عليهم أبداً وهذه هي الزيادة في قو له تعالي " لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ"[٥] وقو له تعالي "وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" [٦] ومع أن الغزالي يجعل رضا العبد من ثمرات رضا الله تعالي فإنه يجعل رضا الله تعالي من ثمرات رضا العبد أيضاً [٧] لأن العبادة طاعة دائمة مع توفيق دائم

---

(١) الإحياء ، للغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٤ .
(٢) المرجع السابق ج٤ صـ ٣٤٤
(٣) التعرف ـ للكلاباذي ، صـ ١٢٠ .
(٤) اللمع ، للطوسي ، صـ ٨١ .
(٥) سورة يونس : آية ٢٦ .
(٦) سورة (ق) آية ٣٥ .
(٧) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٤.

فتحصل السعادة التي سببها الرضا المتبادل وكلاهما في النهاية محض فضل من (رضا الله) [1] والعبد في حال الرضا يتقبل الأحكام بالفرح والسرور وبطيب نفس حتي يصبح سروره عند كل قضاء يقضيه الله تعالي وفي كل الأحوال (فمن الرضا سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها في كل حال وطمأنينة القلب ، عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا وقناعة العبد بكل شيء واغتباطه بقسمة ربه وفرحه بقيام مولاه عليه). [2]

وقد جاء في الآثار عن ابن عباس رضي الله عنهما [3] (ت ٦٨هـ) (أول من يدعي إلي الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالي علي كل حال) [4] والأحوال لا تستقر فدائماً متقلبة وقد كان

---

[1] الإحياء ــ الغزالى ج٤ ص ٣٤٤ .

[2] قوت القلوب ــ المكي ، ج٢ ، صـ ٤٦ .

[3] الصحابي الجليل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب : يكني أبا العباس وهو ابن عم النبي ﷺ توفي النبي ﷺ وهو ابن ثلاث عشرة سنة . وكان صبر الأمة وترجمان القرآن ويسمي البحر لغزارة علمه دعا له النبي فقال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) . وقال (اللهم علمه الحكمة) كان عمر وعثمان رضي الله عنهما في عهدهما يدعوانه فيشير عليهما مع أهل بدر وكان يفتي في عهدهما إلي أن مات ــ كان عمر إذا ذكره قال : ذاكم فتي الكهول ، له لسان سئول وقلب عقول .

توفي رضي الله عنه بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن إحدي وسبعين سنة . انظر ترجمته في (صفة الصفوة) لابن الجوزي صـ ٢٩٤ وما بعدها ج١ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ــ وانظر تهذيب الكمال (٢/ ٦٩٨) ، تهذيب التهذيب (٥/ ٧٦) ، (٤٧٤) ، وتقريب التهذيب (١/ ٤٢٥ ، ٤٠٣) وخلاصة تهذيب الكمال (٢ / ٦٩ ، ١٧٢) ، الكاشف (٢/ ١٠٠) ، أسد الغابة (٣/ ٢٩٠)

[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٧.

عمر بن عبد العزيز [1] (ت ١٠١هـ) يشتهي دائماً (ما يقضي الله ويقول ، ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر) [2] والعبد يبلغ القمة في السعادة بقضاء الله تعالى حتى لو أدخل النار إذا كان هذا في رضا المحبوب وابتغاء طاعته قال سمنون ـ المحب ـ [3] ...

---

[1] عمر بن عبد العزيز بن مروان ـ يكني ـ أبا حفص ـ أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال سفيان الثوري : الخلفاء خمسة (يقصد الراشدون) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز ، قال الإمام أحمد بن حنبل : يروي في الحديث أن الله تبارك وتعالى يبعث علي رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة دينها . ونظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز ونظرنا في المائة الثانية فإذا هو الشافعي (ت ٢٠٤هـ) قال يوم ولي الخلافة ـ أيها الناس : من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصي الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم وقد روي الحديث عن جماعة من الصحابة والتابعين وأرسل الحديث عن القدماء من الصحابة وروي عن خلق كثير من التابعين أمثال سعيد بن المسيب وغيره كثير . وتوفي رحمه الله لعشر ليالي بقين من رجب سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر .

انظر ترجمته في (صفة الصفوة ـ للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ج٢ ، صـ ٥٨ . وما بعدها) وله ترجمة في (تهذيب التهذيب ٧٤/٥) التاريخ الكبير (٤٤٨/٦) وتهذيب الكمال (٦٤٥) ، الجرح والتعديل (٣٢٥/٦) وحلية الأولياء (١٦٦/٣) وخلاصة تهذيب الكمال (١٨٤) وطبقات خليفة (٢٥٩) .

[2] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٦ .

[3] سمنون المحب : هو أبو الحسن وقيل أبو القاسم سمنون بن حمزة الخواص ـ الملقب بالمحب سمي نفسه سمنون الكذاب ! وذلك لأنه أنشد :

فليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فامتحني

إن كان يرجو سواك قلبي ... لا نلت سؤلي ولا التمني

فابتلاه الله باحتباس البول ! فظل يتألم ويصرخ ، ويدور علي الصبيان في المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .. !! ومن شعره أيضاً :

فإن شئت واصلني ، وإن شئت لا تصل

فلست أري قلبي لغيرك يصلح

وقد صحب السري ، وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصار وغيرهم وتوفي قبل الجنيد علي ما يذكر .

انظر ترجمته في (الرسالة القشيرية ، طبعة الحلبي ١٩٥٩م ، صـ ٢٣ ، وأيضاً الرسالة تحقيق د/ عبد الحليم محمود ـ صـ ١٣٣ .

لـــو قيل طأ في النار أعلم أنه رضـــاك أو جد لنا من وصالكا
لقدمت رجلي نحوها فوطئتها سروراً لأني قد خطرت ببالكا [1]

والراضون في الآخرة هم أرفع أهل الجنة درجات لأنهم بالرضا ينعمون ويتلذذون بالنظر و (لن يرد القيامة ـــ كما قيل ـــ أرفع درجة من الراضين عن الله علي كل حال ، ومن وهب الرضا فقد بلغ أرفع الدرجات) [2] والرضا متفاوت الدرجات فكما أن الجنة متفاوتة الدرجات فإن كل عبد في درجته له من الرضا بحسب درجاتها ما أهله لاحتلال هذه الدرجة وهو عندهم أعظم من درجاتهم وإلي هذا أشار أحمد بن أبي الحواري بقوله (نعيم أهل الجنة في الجنة برضوان الله أفضل من نعيمهم بالجنان) [3] والعبد يجب عليه أن يستوي عنده المنع والعطاء لأن الله تعالي فتح له باب كرمه فرضي منه ما رضيه هو ممن هم دونه من الموالي وحصل له ما لم يكن ببابه وخاطره ألا وهو محبة الله ورضاه (فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه) [4] ولقد فرق أبو حامد بين الرضا وبين الصبر وخطأ جماعة من المتكلمين الذين أنكروا الرضا وقالوا ليس ثمة إلا الصبر وأن (ليس فيما يخالف الهوي من أنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ؟) [5] فقد قصرت أفهام هؤلاء عن تبيان حقيقة الفرق بينهما وذلك لأنهم نسبوا الأفعال كلها لله ولم ينسبوها للعبد فصاروا بهذا جبرية وقالوا (إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضي بالكفر والمعاصي) [6] وقد بين الغزالي

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ الأصبهاني ، ج١٠ ، صـــ ٣١٠ .
[2] الكواكب الدرية ـــ المناوي ، ج١ ، صـــ ٥٣٤ .
[3] حلية الأولياء ـــ الأصبهاني ، ج١٠ ، صـــ ٩ .
[4] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـــ ٣٤٧ .
[5] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـــ ٣٤٧ .
[6] المرجع السابق ، صـــ ٣٤٣ .

خطأ هؤلاء الفادح الذي أدي إلي التلبيس علي عوام المسلمين فانخدع بهذا القول المموه جماعة (فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالي) [1]

وقد كان عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه ـ يفهم حقيقة الفرق بينهما فكتب إلي أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ [2] " أما بعد ، فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر " [3] لذا فقد وضح ابن القيم (ت٧٥١ هـ) شرط الرضى حيث قال (وليس من شرط الرضى أن لا يحس بالألم والمكاره ، بل ألا يعترض علي الحكم ولا يتسخطه ، ولهذا أشكل علي بعض الناس الرضى بالمكروه ، وطعنوا فيه وقالوا : هذا ممتنع عن الطبيعة ، وإنما هو الصبر ، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهة ؟ وهما ضدان : والصواب أنه لا تناقض بينهما ، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضى ، كرضى المريض بشرب

---

[1] الغزالى ـ الإحياء ،ج٤ ، صـ ٣٤٣ .

[2] أبو موسي الأشعري ـ عبد الله بن قيس بن سليم . أسلم بمكة وهاجر إلي أرض الحبشة ثم قدم مع أهل السفينتين ورسول الله ﷺ بخيبر وقد صح من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ (لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة ، لقد أوليت مزماراً من مزامير آل داود) فقلت : يا رسول الله وعلمت أنك تسمع قراءتي لحبرته لك تحبيرا) وقد كان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا تعالي فيقرأ . (أي القرآن الكريم) وله قصة التحكيم المشهورة بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه . وتوفي رضى الله عنه سنة خمسين وقيل : اثنتين وأربعين وقيل : أربع وأربعين ، ودفن بمكة وقيل : دفن بالثوية علي ميلين من الكوفة .

انظر ترجمته في (صفة الصفوة ـ لابن الجوزي ، ج١ ، صـ ٢١٥ وما بعدها) وأيضاً تهذيب الكمال (٢/ ٧٢٤) وتهذيب التهذيب (٥/ ٣٦٢ ، ٣٢٥) وتقريب التهذيب (١ / ٤٤١ ، ٥٥١) وخلاصة تهذيب الكمال (٢/ ٨٦) والكاشف (٢/ ١١٩) وتاريخ البخاري الكبير (٥/ ٢٢، ١٧٢)

[3] مدارج السالكين ـ ابن القيم ، ج٢ ، صـ ١٨٥ .

الدواء الكريه ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها) [١] ويري أبو حامد أن السبب في ذلك أن هؤلاء أنكروا المحبة وبالتالي أنكروا متعلقاتها وإنما أوتي هؤلاء من (ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالي واستغراق الهم به فلا يخفي أن الحب يورث الرضى بأفعال الحبيب) [٢] وبهذا تتحقق درجة الكمال في الجمع بين المحبة والرضى وكما يقول ابن القيم (ت ٧٥١هـ) ـ رحمه الله ـ إن طريق الرضى والمحبة : (تسير العبد وهو مستلق علي فراشه ، فيصبح أمام الركب بمراحل) [٣] وقد بين الغزالي أن المحبة تورث الرضا وبيان ذلك من وجوه منها : (أن يدهشه مشاهدة الحب وإفراطها عن الإحساس بالألم) [٤] وذلك إذا كان الحب أقوي من الألم وكان الألم من منافع المحبة والسبب في ذلك (استيلاء الحب علي القلب) [٥] وكما أن الألم اليسير يقابله حب يسير فكذلك الألم الكبير يقابله حب أكبر ومعني هذا أن المحبة تزيد وتنقص والرضا كذلك فإنما هما من الإيمان والإيمان يزيد وينقص فإذا أحب المرء الصور الظاهرية ودهش بها فإن العقلاء تدهشهم الصور الباطنة العظيمة ولا يدرك هذا بحاسة البصر بل بالبصيرة التي أقرها الدين فإن حب الصور (الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة يقوي) [٦]

---

[١] مدارج السالكين ـ ابن القيم ، ج٢ ، صـ ١٨٢ .

[٢] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٧ .

[٣] مدارج السالكين ، ابن القيم ، ج٢ ، صـ ١٨٣ .

[٤] الأربعين ، الغزالي ، صـ ٢٦٥ .

[٥] الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٤٧ .

[٦] المرجع السابق ، صـ ٣٤٧

وفي هذا أنشدوا للنوري (ت ٢٩٥هـ) :

إن الرضـــا لمـــرارات تجـــرّعُها ... عن القُنوع إذا ما استعذَب الكدرُ
عواقبُ أشهدَت بعضَ الحضور فمَا ... يرعـــى التكـــثّر إلا نَاقةُ نزرُ[1]

أما الوجه الثاني :

(أن يحس بالألم ويكرهه بالطبع ولكن يرضى به بعقله وإيمانه لمعرفته بجزالة الثواب علي البلاء)[2] وقد سئل القناد[3] ـ رحمه الله ـ (ت ٣٠٩ هـ) عن الرضا : فقال (سكون القلب بمر القضاء)[4] وتحقيق ذلك من العبد (يكشف عن قيمة مقام الرضا في تلازمه مع الصبر لأ ن الاثنين معاً يقترنان بكمال إيمان العبد وحسن علاقته بربه وهنا لا يتصور إلا كما قال أبو حامد (في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهي لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقي بعد الموت) وقيل في هذا :

يـــوم الفـــراق من القيامة أطول ... والموت من ألم التفرق أجمل
قالوا الرحيل فقلت لست برلحل ... لكـــن مهجتـــى التـــى تترحل

---

(١) التعرف ـ الكلاباذي ، صـ ١٢٠ .
(٢) الأربعين ، الغزالي ، صـ ٢٦٧ .
(٣) القناد (ت ٣٠٩هـ) : هو أبو الحسن علي بن عبد الرحيم الواسطي القناد ، من أعلام الملامتية (الصوفية الذين يكتمون حقيقة صلاحهم خوفاً من الفتنة) اشتغل بالحديث ، توفي (٣٠٩هـ)
انظر ترجمته . هامش صـ ٤١ من كتاب المقدمة في التصوف . لأبي عبد الرحمن السلمي ، تحقيق ـ يوسف زيدان .
(٤) اللمع ، الطوسي ، صـ ٨٠ .

وأما الوجه الثالث :-

(أن تعتقد أن لله تعالي تحت كل أعجوبة لطيفة بل لطائف) [1] فإذا حقق العبد ذلك خرج من نفسه السؤال بلم وكيف (فرضى بما دبره الله في ملكوته) [2] وهذا بالطبع يورث العبد الطمأنينة والسكون وبرد اليقين وفي هذا يقول سهل بن عبد الله التستري [3] (ت ٢٨٣هـ) (إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة وحصلت ، فطوبي لهم وحسن مآب) [4] ولهذا أيضاً يفهم قول عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) عندما فهم أن العناية الإلهية ما كانت لتترك العبد دون اللطف به ـ فقال (أصبحت ومالي في الأمور من اختيار) [5] وقد وعي أبو حامد ـ كل هذا وأدركه جيداً بعقل المؤمن المستبصر فأكد أن (الرضا بما يخالف الهوي ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين) [6] وذلك لأنه إذا كان جائزاً في حق المخلوقين فلا ضير أنه ممكن وواجب في (حق حب الله تعالي وحظوظ الآخرة) [7] وفي النهاية يقرر الغزالي أن الرضا بأفعال المحبوب ـ يكون لأحد السببين (الأول) لما يتوقع من الثواب الموجود (والثاني) لا لحظ

---

(١) الأربعين ، الغزالي ، صـ ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، صـ ٢٦٨ .

(٣) التستري (ت ٢٨٣هـ) : هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسي بن رفيع التستري ، من أئمة التصوف الكبار الذين تكلموا في الزهد والإخلاص وعيوب الأعمال .. ومن أقواله (الناس نيام ، فإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم) .. (أدني الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة) توفي (٢٨٣هـ) .
انظر الرسالة القشيرية ، صـ ٩٢ ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف .

(٤) عوارف المعارف ـ السهروردي ، بهامش الإحياء ، ج٥ ، صـ ٢٣٨ .

(٥) الطريق إلي الله أو كتاب الصدق ـ أبو سعيد الخراز ، صـ ٧٤ . تحقيق د/ عبد الحليم محمود .

(٦) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٥٠ .

(٧) المرجع السابق ج٤ ، صـ ٣٥٠

وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ــ حتي (يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب) [1] وهذا ما يقصد به الفناء في المحبة ــ فإذا كان هذا يتصور في حق العبد ــ لما يلاحظ بالبصر الظاهر ــ فإنه في حق الله أولي ــ ولا يعرف هذا إلا بالبصيرة الصادقة والتي محلها القلب والتي تحصل له اللذة والسعادة تبعاً لذلك فإن (جمال الحضرة الربانية أوفي من كل جمال ، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال)[2] ولا ينكرها إلا من أنكر قيمة القلب وفقد نور البصيرة (فالذي فقد القلب لابد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مظنة لها إلا القلب) [3] وقد كان الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) يخاطب النفس البشرية بقوله (ففي نعيم الطاعة في الدنيا ، والظفر بنعيم الآخرة عوض عن تنغيص لذات الدنيا ، وليس لذات الدنيا بنعيم لو تعقلين) [4] وعلي هذا فإن البصيرة تدرك لا محالة أنه ثم فرق بين الرضا والصبر لا يحول هذا دون هذا ولا ينكر هذا إذا لم يفهم وبهذا يتبين أن (الصبر أول منازل الإيمان ودرجاته وأوسطها وآخرها فإن صاحب الرضا والشكر لا يقدم الصبر في مرتبته ، بل الصبر معه وبه يتحقق الرضا والشكر ، ولا تصور ولا تحقق لهما دونه) [5]

وقد قال ابن الفارض (ت ٦٣٢هـ) :

ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة

ويمنعني شكواي حسن تصبري ... ولو أشك للأعداء ما بي لأشكت

---

[1] الإحياء ، الغزالى ج٤ ص ٣٥١ .

[2] المرجع السابق ، صـ ٣٥١ .

[3] المرجع السابق ص ٣٥١.

[4] الرعاية لحقوق الله ، المحاسبي ، صـ ٦٤ .

[5] طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم ، صـ ٢١٨ ، الناشر ، مكتبة أسامة الإسلامية ــ القاهرة .

وما حل بي من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزيمتي
وكل أذي في الحب منك إذا بدا جعلت له شكري مكان شكيتي [1]

ولهذا يقول باحث محدث مشيراً إلي ذلك ومبيناً العلاقة بين الصبر والرضا أنه إذا (سيطر الرضا علي نفس المحب سيطرة قوية أصبح معها يري الألم لذة والمحنة منحة تستحق الشكر لا الشكوي) [2] ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام ــ هو هل الدعاء من أجل دفع البلاء يناقض الرضا ؟ ولقد أجاب أبو حامد عن هذا السؤال بأن لا (ينبغي أن نظن أن معني الرضا بالقضاء ترك الدعاء ــ بل إن الله تعالي ــ تعبد العبد بالدعاء ليستخرج به من قلبه صفاء الذكر وخشوع القلب ورقته ليستعد به بقبول الألطاف والأنوار فمن جملة الرضا بقضائه أن يتوصل إلي محبوباته بمباشرة ما جعله سبباً له بل ترك الأسباب مخالفة لمحبوبه ومناقضة لرضاه) فمن المعلوم أن الله هو الذي يبتلينا ولا نبتليه وقد مدح الله عبداً له تحقق بالكمال في الأخذ بالأسباب التي أتاحها الله تعالي له وهو سيدنا (ذو القرنين) في سورة الكهف إذ قال تعالي " وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً " [3] وفتح الله له بهذا ممالك المغرب والمشرق .

وقد بين أبو حامد في كتابه الشهير الإحياء أن الدعاء عبادة وطاعة جعله الله تعالي للكمل من عباده مع أنهم كانوا في قمة مقام الرضا وسيد هؤلاء جميعاً الرسول ﷺ وقد كان (في أعلي المقامات من الرضا وقد بين أبو حامد ــ أن الناس فريقان في الرضا ــ فريق عبد الله بالدعاء وفريق رضى بالذنوب ومحقرات الأعمال فأما الفريق الأول فقال تعالي فيهم مثنياً

---

[1] راجع التائية الكبري ، لابن الفارض .

[2] ابن الفارض والحب الإلهي ، د/ محمد مصطفي حلمي ، صـ ١٨٣ .

[3] سورة الكهف : آية ٨٤، ٨٥ .

عليهم " وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً " [1] وأما الفريق الثاني فقال فيهم " وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ " [2] وهذا يوضح أن الرضا بالله بالعمل بطاعته واجتناب نواهيه إنما ينبع من أصول العقيدة ألا وهو الإيمان بالقضاء والقدر وقد قيل في ذلك :

مـــن لم يثق بالقضاء والقدر لاقي هموماً كثيرة الضرر

فعلي العبد أن يرضى بما قضاه الله تعالي وقدره حتي لا تحيطه الهموم ويذهب من قلبه الطمأنينة فيخرجه هذا من باب التسليم والطاعة بل من ديوان العبودية . وقد فهم جماعة وتصوروا الرضا بما يخالف الهوى أنه رضى بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار فأنكروا الرضا عموماً وهذا خطأ فادح كما بينه أبو بحامد واتهمهم بأنهم طائفة من (الضعفاء) قد جهلوا وخدعوا غيرهم بذلك بل وصل بهم الحال إلي أن (ترك الأمر بالمعروف من جملة الرضا بالقضاء وسموه حسن الخلق) ومعلوم أن حسن الخلق يناقض هذا فحسن الخلق الذي مدح الله به رسوله في قوله تعالي " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"[3] قد اتضحت أرقي صورة في شخص الرسول ﷺ الذي لم ير غاضباً (إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالي) ونفذ بنفسه تطبيق الحدود ودعى إلي مكارم الأخلاق بل كان هؤلاء في رأي الغزالي (علي جهل محض) فعلي المؤمن أن يرضي ويكره ويأمر وينهي كل حسب حاله فإن (الرضا والكراهية يتضادان إذا تواردا علي شيء واحد وهذا أمر يكاد لا يفهم وهو كما يقول الغزالي (مما يلتبس علي الضعفاء القاصرين عن الوقوف علي أسرار العلوم) وذلك لأن التضاد إنما يكون من جهة واحدة

---

[1] سورة الأنبياء : آية ٩٠ .

[2] سورة يونس : آية ٧ .

[3] سورة القلم : آية ٤ .

وعلي وجه واحد وليس الأمر كذلك عندما تختلف الوجوه والجهات فإنه (لا يتناقض أن يقتل عدوك الذي هو عدو عدوك أيضاً فترضاه من حيث إنه عدوك وتكرهه من حيث إنه عدو عدوك) [1]

وبهذا يصل الغزالي بضرب الأمثلة والسير مع الأفهام إلي الإقرار بأن (الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنهما جميعاً منه ـ من غير افتراق في الرضا والكراهة ـ فهو أيضاً مقصر) [2] ويختم الغزالي حديثه في الرضا وبيان درجته بين مقامات المحبين أنه (ليس في شيء ومن أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلي فعل الله تعالي) [3] وبهذا يتبين الحب وأنه شجرة الدين العظيمة وتتبين ثمارها وأنها من نعم الله تعالي إذا تحقق بها العابدون وهي نابعة من عين الجود الإلهي وهذا يكشف عن حرص الغزالي علي رسم الطريق الموصله إلي تحقق المحبة .

---

(1) الأربعين في أصول الدين ـ الغزالي ، صـ ٢٦٨ .

(2) الأربعين ، الغزالي ، صـ ٢٦٨ .

(3) الإحياء ، الغزالي ، ج٤ ، صـ ٣٥٢ .